أكثر بكثير

باسم كوسا

Telegram:@mbooks90

نينوى

رواية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١ -

«مبروك»، هذا هو اسمي، احفظوه جيّداً، فقد ينفعكم في يوم ما!

كان مَن يُدعى أبي يردِّد دائماً في وجه أمّي:

- أنتِ عاقر ولا خير فيكِ!

تهمة ستطاردها طوال سنوات من العذاب والإهانات وشتائم السكارى.

أمّا هي، أمّي، فكانت تذبل مثل وردةٍ يوماً بعد يوم. وبيأس المقبل على الانتحار، قلّبت الفكرة في رأسها إلى أن وجدت ضالّتها في أجير النجّار. أحضرته يوماً ولم يكن في المنزل من أحد. ما إن دخل، أغلقت الباب وراءه، واقتادته إلى سريرها بغواية أنثويّة طاغية، وطلبت إليه أن يخلعَ ثيابه، مطمئنةً إلى أنّ أبي كعادته غارق في عتمة خمّارة بصحبة أصدقاء له، وبعض العاهرات.

ارتبك أجير النجّار الشابّ، وقال متلعثماً:

- لقد جئتُ من أجل تثبيت الرفوف في المطبخ.

- ستثبّتها لاحقاً. قالت له بإصرار وهي تسحبه من ذراعه نحوها.

كانت تعجبه، لكنّه لم يفكّر يوماً في أنّه سيلتهم مثل هذه الثمرة الشهيّة. أحسّ أنّ سيخاً جهنميّاً قد دخل في أسفل قدمه مروراً بعضوه، وانتهاءً بجمجمته، التي كادت تنفجر من فرط الشهوة. تردَّدَ ثانيةً واحدة، ثمّ اقتحمها مثل عجلٍ هائج.

همست في أذنه بأنّ ما حدث بينهما سيبقى سرّاً. هزّ رأسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موافقاً، وهو يرفع سرواله، وانسحب مرتبكاً من الغرفة نحو المطبخ لإتمام العمل الذي أتى من أجله.

بعد أشهر، كانت أمّي حاملاً بي.

- أما زلتَ تدعوني عاقراً؟ قالتها وهي تمسح على بطنها متباهية.

- ما شاء الله؟! ردَّ عليها مَن هو زوجها، أبي.

الزمن يمرُّ كلمح اللمح. سحبتني الداية من الأحشاء، وكنت أقهقه – هذا ما أخبرتني به أمّي -.

كلّ أطفال الأرض يأتون بكّاءين، وفي أحسن الأحوال مبتسمين، أمّا أن يأتوا إلى الدنيا وهم يقهقهون، فهو شيء مريب وغريب!!

تخيّلوا طفلاً يخرج من بطن أمّه وهو يقهقه...

كأنّي كنت أعرف أنّ أمّي لم تكن عاقراً بل كان أبي العاقر!!

لذلك، جئتهما أقهقه، وفي أقلّ تقدير، ساخراً!

بمنشار النجّار الشابّ وعدّته الكاملة، تمكّنت أمّي من إنجاب خمسة أولاد، وكانت على استعداد لأن تنجب أكثر، لولا أنّ النجّار الشاب غادر الحارة كلّها، بعد أن قرّر الزواج من ابنة عمّه، بناءً على رغبة أهله. كان أبي يسير في الطرقات متبختراً مثل فحلٍ حقيقيّ، وهو يوزّع التحيّات والسلامات إلى كلّ من يصادفه في طريقه.

- أهلاً يا أبا مبروك.

لقد أسمياني مبروكاً.

أذكر أنّ أمّي كانت تغمرني بذراعيها البضّتين، وتعصرني بقوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحبّ كبيرين. تتشمّمني بنهم، كأنّها كانت تستعيد رائحة النجّار الشابّ، وهي تهمس في أذني ضاحكة: أحبّك يا بن الحرام!

إلّا أنّ أيّاً من إخوتي وأخواتي لم يسعفه حظّه في البقاء في قيد الحياة، فما إن يكمل الطفل عامه الثاني، يمُت، إمّاً مرضاً، وإمّا جوعاً، وإمّا إهمالاً. وآخر طفلة ماتت لا لشيء إلّا لأنّ أبي كامل الحكمة، كان في حالة من السُكر الأعمى، ما دفعه إلى أن يدلق كميّة من هذا المشروب العنيف في جوف الطفلة عندما طلبت إليه أن يسقيها ماءً. خرجت أمّي إلى المطبخ لتحضر لها الماء - هذا ما قالته لي، وبكت بحرقة - لَمّا عادت حاملةً الكأس المعدنيّة، وجدت الطفلة ممدّدة على الأرض كحمامة صغيرة وهي تختلج وتنتفض بينما هو، أبي، كان ينظر إليها بعينين زائغتين وهو يقهقه، ولا يدري ماذا جرى، لكأنّه كان خارج الملكوت.

أذكر أنّي استيقظت في اليوم التالي على صوت صراخ مرعب لم أدرك كنهه ولا مصدره، خرجت بقدمين صغيرتين حافيتين متّجهاً صوب الصوت، وإذ بي أراه مقرفصاً، حاملاً براحتَي كفّيه الجسد اللين للبنت وقد فارقت الحياة. صمتت أمّي شهوراً دون أن تنبس ببنت شفة. أعتقد أنّ هذا الموت عجّل في موتها.

حوادث موت أشقائي جعلت أمّي تضرب حولي سياجاً صلداً من الاهتمام والحرص والخوف، ولمَ لا؟ فأنا الولد الوحيد الذي نجا من الموت بين كلّ إخوتي. لكأنّ بنيتي الجسديّة كانت عصيّة على الطحن.

لا أدري لمَ أحدّثكم عن هذا؟

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢ -

أمام المرآة ثمّة شخص يقابلني بشاربين كثّين، مع رأس كبير مكوّر، وكتفين عريضتين، وقامة قصيرة ببطن بارز. أنا لا أسخر منّي، أنا أوصفني فقط. كنت مرحاً. لِمَ؟ لا أدري. هكذا طبعي كان مرحاً وساخراً وحزيناً.

إلّا أنّ حزني لم يكن من النوع الذي يدفع أيّاً كان إلى التعاطف معي. أي، إنّه يخصّني وحدي ولا أحد سواي. حتّى إنّني اعتدت أن أخفيه عن أعين الآخرين، فلا يظهر منّي إلّا تلك الجرعات الساخرة. كنت أخفي هشاشتي خلف سخريتي... تعلّمت القراءة على نحو جيّد، والحساب، وجدول الضرب أحفظه غيباً...

كنت أعتقد على الدوام أنّني أمتلك عقلاً رياضيّاً قادراً على التحليل، بفطرةٍ عالية.

لماّح؟ نعم كنت لمّاحاً بالفطرة.

أحفظ شعراً أو قولاً مأثوراً أو أيّ حكمة أسمعها من الآخرين دون عناء.

أنا لا أمدحني، أنا أوصفني فقط.

كتلة بشريّة شبه مترهلة تسير على الأرض بفظاظة، هذه الكتلة - أنا -

كنت كلّما انتقلت من مهنة إلى أخرى، يرافقني الفشل على الدوام. عملت في ورشة لطرق النحاس فلم أفلح، وعملت فرّاناً وفشلت، ثمّ أجير مقهى، ولم ترق لي هذه المهنة.

ساعدني أحد معارفي للعمل لدى نسّاج بسط، فكانت أصابعي على الرغم من خشونتها تستجيب للخيوط بدقّة وحنكة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرتين، ما جعل صاحب النول يثق بي ويفتح لي أبواب أسرار هذه المهنة العجيبة.

كلّ شيء يحتاج إلى شيء آخر «السدّة» تحتاج إلى «اللُّحمة» لاستكمال قطعة النسيج.

اليد تحتاج إلى يدٍ أخرى لتصفّق.

هذا ما قاله معلّم النول منذ اليوم الأوّل.

الليل يحتاج إلى النهار.

الأسود يحتاج إلى الأبيض ليتكاملا.

الذكر يحتاج إلى الأنثى كي... لا أدري.

نسيت أن أخبركم أنّ أبا مبروك، أبي، وأمّ مبروك، أمّي، قد ماتا.

في يوم خريفيّ بعيد، كان ممدّداً على فراشه، نظر إليّ بوجه هدّه التعب والإحساس بالغربة. كان حزيناً إلى درجة لم أستطع معها أن أطيل التحديق نحوه وهو يحاول أن يطلق روحه لمغادرة جسده المكدود.

شدّني صوته الخائر وهو يقول:

- يا مَن لست ابني، لقد أحببتك أكثر من باقي إخوتك، ليس لشيء إلّا لأنك البكر. لقد أدخلت البهجة في قلبي.

وأكمل بصعوبة:

- لقد أجريتُ تحليلاً طبياً وعلمت أنّ ما أمتلكه من ماء الحياة في داخلي لا حياة فيه!!

لقد أرادت أمّك أن تُشعرني بفخر رجولتي ففعلت ما فعلت، لذلك سامحتها... سامحتها على الرّغم من أنّ ما فعلته هو ما قتلني!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد يومين، أو بعد ثلاثة أيّام، لا أذكر... مات.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٣ -

في أثناء تنقّلي من مهنة إلى أخرى، اكتسبتُ أصدقاء ومعارف، غالباً ما كنت ألتقيهم في ركن بائس في خمّارةٍ ما، ندلق همومنا حول طاولة خشبيّة مهترئة، بسطوة كؤوس العرق الحارق الحلو.

لم يكن أحد ليتوانى عن سرد إنجازاته وبطولاته، سواء في أمور العمل، أم في أحوال النساء أو المواقف الممتلئة بالشهامة والشجاعة.

لم أكن أعرف ما أقول. كان دماغي يضجُّ بأفكارٍ متضاربة وضبابيّة. أنصت صامتاً إلى ما يقوله الآخرون، وفي أحيانٍ نادرة أعلّق بطرفة ما، فنضحك جميعاً.

Telegram:@mbooks90

كان من عادتي أن أنهي كأسي بغبّتين لا أكثر، وأصبّ كأساً جديدة مباشرة. بين هؤلاء، لفت انتباهي شابّ لطيف ووسيم توطّدت علاقتي به عندما عملت في ورشة طرق النحاس. كان ماهراً جداً في عمله، إلى أن أصبح أحد معلّمي الكار. كان اسمه (إيليا).

أذكر أنّني، ذات مرّة، كنت منهمكاً في طرق صفيحة النحاس بخشونة، لأجل حنيها وتكويرها إلى أن تتّخذ هيئة وعاء. اقترب إيليا منّي دون أن يلفت انتباه أحد، وهمس بضع كلمات في أذني شعرت حينها بقشعريرة لا توصف.

- كن حنوناً وأنت تطرق النحاس.

كيف يمكن أن يكون المرء حنوناً وهو يطرق المعدن الأصمّ؟!

لم أستوعب كلماته للوهلة الأولى، إلّا أنّ طراوة ناعمة سرت من رأسي إلى باقي أطراف جسدي مروراً بأصابعي. هززت ذقني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موافقاً، دون أن أردَّ بكلمة، كلّ ما أحسست به بعدها أنَّ شعوراً بالخجل هو ما سيطر على كياني... لِمَ؟... لا أدري!!

شغفت بنصيحته، وأكثر من ذلك أحببت طريقته في مخاطبتي.

بدأت علاقة ودود تنشأ بيننا.

- هل تحتسي البيرة؟ مساءً، سألته بعد أن هممنا في مغادرة المشغل.

- لكن أنا من سيدعوك... أجابني.

جلسنا متقابلين في مشرب معتم نتجرّع كؤوس البيرة الفاترة.

- لا بيرة مثلّجة، قال لنا صاحب الخمّارة الذي يشبه المكان، بلحيته المهملة، ومشيته المترهّلة، وشعره الأشعث ذي اللون الفضيّ، وثيابه العتيقة المتّسخة.

- لا بأس. رددنا معاً. فأحضرَ إلينا المزيد من البيرة والحمّص المملّح الهشّ.

- هل تعرفني جيّداً؟ سألني إيليا.

- طبعاً، أنت زميلي في العمل. أجبت.

- هل ستدهش إذا ما قلت لك إنّني أنتسب إلى أسرة يهوديّة؟

لم أستوعب للوهلة الأولى. وقعت كلماته فوق رأسي مثل مطرقة.

- أجدادي منذ مئات السنين يعملون في الطّرق والنقش على النحاس، نحن أسرة تبجّل من يصرف كلّ حياته في مهنة واحدة.

- أحسست بأنّك عتيق في هذه المهنة من دقّة عملك، أجبته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر إليّ نظرة هادئة، وسألني:

- وأنت؟

ارتبكت.

- أنا! ماذا؟ سألته.

- أقصد، ما هي مهنة أسرتك؟

لم أعرف ما أجيبه إلّا أنّني بدأت أتلعثم بادئ الأمر وأنا أتحدّث، وبسبب مودّته الواضحة، انطلق لساني بلا تحفّظ ولا تردّد. كنت كمن يتحدّث إلى نفسه.

- ماذا أقول لك؟ لم يكن أبي صاحب مهنة أو صنعة ثابتة، فقد عمل حارساً ليلياً، وأجيراً عند منجّد فرُش ولحف، طبعاً كانت مهمّته نفش القطن والصوف وتنظيفه. بعد فترة ترك العمل، لمَ؟ لا أدري! اسمع... مرة دخل علينا أبي بكيس مملوء برؤوس الدجاج وبعض أمعائه وطلب إلى أمّي أن تطبخ هذه الأشياء ففعلت مكرهة وأكلنا مكرهين... يبدو أنّني أرث هذه النقلات مكرهاً، كما طعم الأمعاء الكريهة للدجاج، كما ترث أنت من أسرتك مهنة النحاسيّات.

ضحك إيليا بعمق من طريقة حديثي الساخرة، ومن كميّة البيرة التي ابتلعها في أثناء جلستنا، وبدأ يحدّثني عن موضوعات شتّى. كان يُبدي إعجابه بتعليقاتي الساخرة والمصيبة واللاذعة. كنت ألذع نفسي وأقرّعها وأسخر منها أحياناً!

تبادلنا النكات الطريفة، وتحوّلت جلساتنا إلى صداقة حميمة رائعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صمت فجأة وحدّق إلى عينيّ بتركيز، ثمّ قال:

- لا يكفي أن تعمل في مهنة ما ثمّ تمضي، ينبغي لك أن تشغف بكلّ تفاصيلها، كما لو أنّك تعشق امرأة، هكذا كان جدّي يردّد أمام والدي، وسأنصت إلى ما كان والدي يردّده أمامي. لا يكفي أن تصنع سيفاً دمشقياً، إنّما المهارة تكمن في دقّة النقش، وحنان اليد التي تحمل الإزميل. أضاف بعد أن أنهى كأسه: قد تتساءل لماذا أنصحك الآن؟ هززت رأسي، فأكمل قائلاً: ربّما لن نلتقي ثانيةً، فسألتحق بأعمامي في أمريكا، لكنّني لن أتخلّى عن مهنتي هناك. لو لم تكن إسرائيل على الخريطة، تلك التي لا تمثّل مشيئة الربّ، لما فكّرت في الهجرة لحظةً واحدة، أنا اليهوديّ الدمشقيّ الذي ولدت في حيّ من أجمل أحياء العالم بالنسبة إليّ، سأغادر مكرهاً الرحم الذي احتضنني، عارياً من دون قلب أو روح، مثل خرقة بالية تتطاير في الهواء!

مضينا صامتين إلى آخر الشارع. عانقني إيليا ومضى، دون أن يلتفت إلى الوراء. أظنّه كان يبكي، وبكيتُ وحيداً. مشيت مطرقاً أنظر إلى قدميّ، أنصت إلى وقع خطواتي فوق الحجارة السود التي تزيّن الشارع. بدا الليل ساكناً كأنّه محمول على نعش. حاولتُ أن أتشاغل بما ينسيني هذا الوداع الحزين بقراءة آرمات المحالّ والدكاكين المغلقة المتراصفة منذ قرون بروائحها المختلفة، وصولاً إلى محلّ جورج ناصيف للخياطة، في أوّل الحارة، جورج العجوز الأليف الذي لطالما ألقيت عليه تحيّة عابرة في أثناء مروري في الشارع. وقفتُ للحظات أمام المحلّ العتيق وأنا أفكّر: هل سيأتي يوم أقرأ على الواجهة الزجاجيّة للمحلّ «هذا المحلّ برسم البيع»، ثمّ أكتشف أنّ هذا الخيّاط قد هاجر من البلاد مكرهاً، وقد ترك روحه وذكرياته وصلواته تجفّ مثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجرة يابسة؟

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٤ -

دودة كتب، هذا مصطلح يطلق على المهووسين بالقراءة. هكذا أنا، لم يتسنَّ لي قطع مراحل متقدّمة في التعليم، فقد أخرجني أبي من المدرسة ولم أكن قد أنهيت الابتدائيّة بعد، وقذف بي في أتون الحياة لأصبح رجلاً، قال. لكن، ما كان يسيطر عليّ دائماً هو رغبتي الجامحة في القراءة، فمنذ صغري كنت أقرأ أيّ شيء يقع تحت يدي وناظريّ: جرائد، مجلّات، كتب، قصاصات مطبوعة، لمَن هي، وكيف؟ لا أدري!! كنت دائماً ما أقرأ صباحَ مساء، بل في كلّ الأوقات، فلا وقت محدّد للقراءة...

Telegram:@mbooks90

ما أفهمه قليل جدّاً بالنسبة إلى ما أقرؤه.

كلّ شخص أتعرّف إليه يُصادف أن يفتح لي نافذة تجاه قراءة ما، سواء كان يقصد ذلك أم لا. كنتُ ألتهم صفحات كتاب ما بنهم هستيريّ، على الرّغم من أنّني لم أكن أفهم إلّا ما ندر ممّا يحتويه من معلومات. أذكر أنّني عشتُ أيّاماً مع رواية (البؤساء) لفيكتور هوغو، فقد كان الجحيم الذي يتحدّث عنه يشبه الجحيم الذي أغرق فيه الآن. هذا ما أعتقد أنني قد فهمته من هذه الرواية.

دودة كتب، نعم أنا كذلك.

المهنة الوحيدة التي جذبتني إليها وسرقت انتباهي هي العمل على النول، فكلّ خطّ أنسجه يعوّضني عن بعض القراءة.

عندما أدفع المكوك من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، أحسّ بأنّني أكتب سطراً فوق سطر، وبألوان شتّى، ونقوش عدّة، فتتضافر اللّحمة والسدّة، وتتماهيان تماماً مع أسطر الكتب أيضاً... كنت كأنّني لا أقرأ فقط بل كما كأنّني كنت أكتب، وهذا ما كنت أحلم به طيلة حياتي، أن أكتب. عدت إلى غرفتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهكاً واستلقيت على فراشي، ثمَّ أخرجت من تحت وسادتي المهترئة كتاباً، وبدأت أقرأ.

أنا أعرف أنَّ بعضاً منها يثير فيّ مزيداً من التساؤلات، والبعض الآخر يقودني إلى الضياع أو الدهشة والغموض والاستغراب؟!

كان مؤلّف الكتاب يضع صورته البهيّة على الغلاف وهو يسترخي في كرسيّ ملكيّ، فيما تربّع تاج مرصّع على رأسه، وحمل بيده صولجاناً ممتلئاً بالأحجار الكريمة الملوّنة، وفي أسفل الصورة تحت القدمين مباشرة سطّر عنوان كتابه (مئة عزلة في العام)!

دفعني فضولي إلى تقليب صفحات هذا الكتاب. كانت المقدّمة مثيرة حقاً، ما جعلني أسترسل في القراءة:

«كلّ أشكال السرقات هي أفعال شائنة، إلّا أنَّه أنبل بكثير أن تكون سارقاً في وضح النهار، وأمام أعين الخلق جميعاً، من أن تسرق في العتمة أو تحت جنح القانون... وعليه، فإنّني أعلنها صريحة مدويّة، وأقدّمها وثيقة دامغة، واعترافاً مباشراً، وأقول: إنّني سرقت.

ليس هذا فقط، بل سأسرق وأسرق وأسرق؟!

سأسرق كلّ شيء، من البيضة حتّى أقوال الأنبياء والفلاسفة والكتّاب البارعين والقدّيسين، وكلّ ما تقع عيني ويدي وعقلي عليه، هو مباح لديّ، وأهل للسرقة...

جاءنا أحدهم من وراء البحار والمحيطات، وكان قد دبّج حكايات جدّته وأمّه، ونساء المواخير، والساسة، والأعشاب، والطيور، والجبال والمياه...

جمع كلّ ما اقتنصه، ثمّ أعاد تعليبه وتغليفه مرّة ثانية، وفق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقته، وقدّم لنا نتاجه المزعوم بأنّه إبداع واختراع شخصيّ، وقال لنا: خذوا من طيّبات ما صنعت، خذوا تحفة لا يمكن أن يكتب مثيل لها. خذوا مئة عام من العزلة.

جئت، أنا العبد، الذي ليس فقيراً، وقرّرت أن آخذ ما سرق صاحبنا، ثمّ أعيد صياغته وتعليبه وتغليفه حسب طريقتي، كما فعل هو من قبلي لأقدّمه على أنّ ما تقرؤونه ما هو إلّا فيض مخيّلتي، واختراعي السحريّ الذي ليس له قبل ولن يكون له بعد...

فكلّنا يعلم ويؤمن بأنّ السارق من السارق، كالوارث من أبيه.

أمّا لماذا غابرييل غارسيا ماركيز؟

ببساطة لأنّه الأكثر شهرة في العالم، فلمَ لا أتعلّق بأذياله، وأتسلّق عنوان روايته، وأغوص في عالم سحريّ كالذي أماط اللثام عنه؟ لقد كتبت كثيراً من دون أن توافق دار نشر واحدة على طباعة ما كتبته بذرائع مختلفة، فقلت لنفسي: سأجد ضالّتي عند هذا العملاق، وسأتفوّق عليه بحجم العزلة، لأخرج من جحري إلى العالم الواسع بوصفي روائيّاً لا يشقّ له غبار.

هذه حادثة سطو معلن، أقولها علانيّة، لكنّها لا تتجاوز عنوان إحدى أشهر الروايات في العالم - هكذا يقولون - وأقصد تماماً تحفة ماركيز (مئة عام من العزلة) كما أسلفت.

تلك الرواية التي صَار لها جناحان كبيران وقويان لعبور البحار والمحيطات والقارّات لتحطّ مصادفة بين يديّ، عن طريق بائع كتب على أحد الأرصفة، نصحني بشرائها بثمن زهيد.

فحص بسيط لشريط حياتي، أكتشف من خلاله أنّني أعيش مئة عزلة في العام، ولن يغيب عنكم أنّ العام يحتضن ثلاثمئة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخمسة وستّين يوماً، وبحساب بسيط سنحصل على حالة من العزلة والقهر والتهميش والظلم، مئة قسوة في العام، فما إن تخرج من عزلة وموت بطيء حتّى تغوص في مستنقع آخر، وهكذا دواليك، حتّى يوم القيامة.

ورغبة منّي في عدم إرهاقكم من جهة، وابتعادي عن الاستعراض الثقافيّ، كما يحصل مع كثير من الأدباء من جهة ثانية، فإنّي سوف أذكر أسماء بعض العظماء ممّن لهم قيمة معلومة في الحياة الإبداعيّة، سواء كانوا شعراء أم سياسيين أم رسّامين أم قتلة...

في كلّ حال، لا داعي لذكرهم، فهم أشهر من أن يُذكروا. أغلقت الكتاب، وأنا أفكّر كيف يفكّر مثل هؤلاء؟!

من أين أتوا بكلّ هذه الثقة التي لا أمتلكها ولا أريد؟! من أين استحضر هذه القدرة على التطاول على شخص قال عنه هو نفسه إنّ كتابه هو أحد أشهر الروايات في العالم - تحفة - وقد صار لها جناحان قويان يمكنها من خلالهما أن تعبر البحار والمحيطات؟!

حقيقة، أنا قرأت كثيراً، لكن لم أعرف يوماً مَن هو «ماركيز» هذا الذي تناوله صاحب الصولجان بهذه الفوقيّة!

أعدت الكتاب إلى تحت وسادتي ثانية علّني أكمله لاحقاً.

استلقيت في فراشي بعد أن أشعلت لفافة تبغ وبدأت أنفث الدخان إلى أعلى مشكّلاً غيمة رماديّة فوقي بان طيفها من خلال تسرّب بعض خيوط الضوء من الخارج.

فكّرت في صاحب التاج المرصّع، وسوّغت فعلته المعلنة، وفكّرت في عزلتي الشخصيّة التي حوّلتني إلى حطام رجل لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر!

***

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٥ -

إنَّ جمال العين ليس في اتّساعها أو لونها أو شدّة بريقها. إنَّ جمال العين في ما تطرحه من معنى، في ما تقدّمه من حبّ وكبرياء ونظافة.

- ألم ترَ أجمل من هذه يا رجل؟!

قال لي «برهان» الذي تعرفّت إليه عندما عملت فترة في فرن في حيّ شعبيّ، وكانت قد نشأت بيننا علاقة مودّة وصداقة.

استغربت قوله.

فقد كانت هذه الفتاة تمتلك من الرقّة والجمال ما يجعل كلّ الضواري ووحوش الأرض تخضع لحضورها الطاغي الذي يخطف الأنفاس، فهل عليّ أن أقتل نفسي أمام الخلق جميعاً لأثبت لهم كم أحبُّها؟!

صحيح أنّها تميل إلى القِصر وشيء من السُّمن، وفي وجهها بعض الحبوب والبثور الغامقة، وتربط شعرها المجعّد بفوطة خضراء غير جذّابة، إلّا أنّها نظرت إليّ يوماً وأنا أقدّم لها الأرغفة الساخنة نظرة لا تنمّ إلّا عن فتاة تمتلك حبّ الدنيا في عينيها.

وحينما تقول لي: شكراً... أحسّ بأنَّ الجبال ستخرّ أمام قدميها، بأصابعها الناعمة المصبوغة بطلاء أحمر زال معظمه عن أظافرها وتقشّر.

إنَّهم لن يروها بعينيّ... هذه استحالة. ليت الخلق يرونها بعينيّ!!

عندما ألمحها قادمة نحو الفرن أحسّ بأنّني قد أصبحت أضعف خلق الله!! فهناك من يعتقد أنّ هشاشة الزجاج هي دلالة ضعف،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمّا أنا فأظنّها دلالة رقّة. أنا لوح، لوح زجاج رقيق ضعيف، وأيّ نسمة قد تكسره. أعلم أنّني أستطيع مصارعة نسمة هواء لكنّني أثق تماماً بأنّني لن أغلبها.

كنت أعشق هشاشتي هذه وأريد لها أن تزداد وتزداد، فكلّما ازددت ضعفاً أمامها، أحسست بأنّني قد أصبحت أكثر خفّة، إلى درجة أنّها مع كلّ خطوة تقترب منّي كنت أحسّ بأنّني قد بدأت أتلاشى، أتحوّل إلى هواء، إلى غاز، إلى رميم.

كنت أناجيها في دخيلتي متوسّلاً ألّا تقترب... إنّني أصاب بالدوار، أتهاوى، أتبخّر مثل سحابة.

ما هذا يا ربي! كم هو الضعف لطيف!

هذا الضعف الذي يذيب فيك كلّ قطعة قاسية، وكلّ إحساس صلب.

لا بدّ أنّها شعرت بما أنا فيه... تمتمت بعذوبة قائلة: «أريد أن أراك خارج الفرن».

انداح قلبي، وتحوّلتُ بكلّيتي إلى سائل خفيف جاهز للطيران.

ذهبنا إلى حديقة عامّة ممتلئة بصراخ الأولاد والباعة وزمامير السيّارات، والفوضى.

لم أكن أسمع أيّ ضجيج... أيّ صراخ وصخب... كنت فقط أسمع طرقات قلبي الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانفجار والتلاشي.

لن أعمل، ولن أخرج من البيت، ولن آكل، وسألغي صداقاتي ومعارفي وأقاربي، فقط سأكون عبداً خادماً لأمرها، إنّها سيّدة الأكوان السبعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن أستطيع أن أتحدَّث عنها أكثر، فقد اختفت، كيف؟ وأين؟ لا أدري!! لم تعد تأتي لشراء الخبز الساخن، ولم تعد تحمله بين أصابعها المقدَّسة.

انتهت قصَّة عشقي لأميرتي التي لن أحبّ أحداً كما أحببتها.

لماذا أتحدَّث عنها الآن؟ لا أدري!!

حتَّى إنّني لم أسألها عن اسمها، فكلّ ما أعرفه أنَّها هي، هي فقط من أحبّ.

حزنت، حزنت، حزنت لفقدانها...

جلست في غرفتي التي تشبهني، وبقيت أغبّ من العرق الحارق إلى أن غفوت مكاني. بدوت كأنَّني قد غبت عن الوعي تماماً. أحسست كأنَّني قد فارقت الحياة...

وإذا بي أسمع طرقاً خفيفاً على الباب، فتحاملت على نفسي متسائلاً عمَّن سيأتيني في مثل هذا الهزيع من الليل؟! فتحت دفَّة الباب ما مقداره شبر لا أكثر، وكان ثمَّة ضوء خافت ينبعث من الخارج قد ترك مسحة خفيفة على وجه الطارق.

ارتعدت فرائصي، وكدت أسقط وأغيب عن الوعي.

ما الذي جاء بمعبودتي إليّ في هذا الوقت؟

- ألن تدعني أدخل؟!

همست مبتسمة.

لم أعد أعرف بماذا أجيب أو ماذا أفعل، لقد فقدت القدرة على النطق والحركة.

دفعت بكتفها اللدن خشب الباب الذي دفعني هو بدوره لأتراجع خطوتين إلى الوراء، مترنّحاً، مفسحاً في المجال لدخولها الآسر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هبطت كغيمة صغيرة فوق فراشي الإسفنجيّ المتهرئ. أسندت رأسها الملائكيّ براحة كفّها، كاشفة بابتسامة فاتنة عن صفّ من لؤلؤ مكنون، ثمّ رفعت يدها الأخرى مشيرة إليّ بسبّاتها تدعوني إلى الجلوس إلى جانبها.

التصقت قدماي ببلاط الغرفة ولم أعد أستطيع فكاكاً.

همست بصوت أثيري: تعالَ.

لم أجب.

- خائف؟

لم أكن خائفاً، كنت هلعاً!!

استجمعت كلّ ما لديّ من قوّة لأنقل جسدي الجبليّ خطوة، فخطوة، وأصبحت قربها. ربّتت براحة كفّها على الفراش تأمرني بالجلوس، فجلست.

رائحة البنفسج تتضوّع منها. بدأت أرى زهوراً بريّة ملوّنة تتطاير متراقصة بهدوء في فضاء المكان. اقتربت منّي، أغمضت عيني، وما كادت تلمس بإصبعها خدّي حتّى شعرت بماء دافئ قد سال بين فخذيّ. أجفلت فزعاً مرعوباً، كأنّ خدّي قد لسعه سيخ نار مُحمّى. فتحت جفنيّ بصعوبة. كان خيط حادّ من ضوء الشمس هو من أيقظني.

صحوت متعرّقاً محروقاً ممّا كان يحدث في جوفي وروحي. حينها أصبحت على يقين تامٍ من أنّني لست سوى قطع من حطام قد تراكم بعضها فوق بعض مشكّلةً كائناً بشريّاً... لعن الله حظّي.

وقفت مترنّحاً مصاباً بدوار، تكاد لا تحملني قدمايَ، وذهبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحو المغسلة القذرة لأضعَ رأسي تحت صنبور الماء النحاسيّ الأصفر، فلفتت كسرة المرآة المتبقية على الحائط انتباهي.

نظرت، فأجفلت!!

من هذا الذي أرى؟ هل حقيقة أنّي أراني!!

شخص منتفخ الأوداج، مهمل اللحية، بشعرٍ ملبّد وعينين حمراوين كعينَي فرس النهر، وحاجبين كثّين أسودين قد تربّعا في جبهتي الضيقة كقطعتين من جلد ماعز أسود.

لوهلة لم أعرفني!

وضعت رأسي تحت الصنبور وفتحت الماء البارد بأقوى ما يمكن، وبدأت أفرك رأسي ووجهي علّني أعود إلى مَن كنت عليه...

نظرت إلى المرآة ثانية. إنّني نفسي، مَن رأيته قبل الماء... كأنّني أكتشف من أنا مرّة أخرى.

كلّ ما خطر في بالي أنّني قلت: الحقّ معها أنّها غادرت هذا الكائن... غادرتني... معبودتي التي لم تلمسني يوماً، لكن ماذا يمكنني أن أفعل وأنا أعرف أنّني أفضل ما لديّ!!

فجأة تغيّر مزاجي وصرت مبتهجاً، وكلّي حبور وسعادة.

وضعت ركوة القهوة على النار بعد أن ملأتها ماء عذباً ثمّ اتّجهت على نحو لا إراديّ إلى آلة التسجيل وضغطت على زرّ التشغيل، فانطلق صوت أمّ كلثوم صدّاحاً مشرقاً بهيّاً - لا تشغل البال بماضي الزمان، ولا بآتي العيش قبل الأوان، واغنم من الحاضر لذّاته، فليس في طبع الليالي الأمان -.

صببت القهوة في كأس - ليس لديّ فناجين - وبدأت أرتشف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منها بعدما أشعلت لفافة تبغ ثقيل...

كلّ ما حولي يدفعني إلى الطيران فرحاً. لقد نسيت الليلة الفائتة، فالحياة جديرة بأن تُعاش، كما قرأت ذات مرّة.

لكأنّ غيمة صغيرة ورديّة قد دخلت غرفتي وأيقظتني ودارت حولي بحنوّ وحبّ.

كلّ شيء جميل؛ النافذة المخلّعة مكسّرة الزجاج بدت رائعة، قطعة القماش الزيتيّ الباهت المصفرّ المعلّقة على الحائط التي كنت أخفي خلفها كميّة من نفاياتي، سترات قديمة، أحذية غير قابلة للاستخدام، غطاء من صوف رماديّ عتيق...

هذه الستارة كأنّها استجابت لهذه الغيمة وقد تحوّلت إلى قماش حريريّ برّاق لدن، تتمايل مع بعض النسمات التي تدخل من خلال الزجاج المكسور في النافذة، وصوت أمّ كلثوم يصدح «واغنم من الحاضر لذّاته»...

لن يكون في الدنيا أحد أكثر طرباً وسعادة منّي وسيّدة الغناء قد تحوّلت في هذه اللّحظة إلى فتاة بتول خجول ذات خدّين أحمرين وشفتين كرزيّتين شفّافتين.

قلت في نفسي: أليس غريباً أن تغنّي امرأة وصلت في العمر إلى ما وصلت، ورأت ما رأت، وعاشت ما عاشت؟! أليس غريباً أنّنا حين نسمعها، ننغمس في صوتها وننسى أنّها امرأة عجوز، وهي تغنّي عن الحبّ العذريّ كفتاة لم ينبت بعد زغب إبطيها؟ وإذا ما لمحت ابن الجيران الذي تحبّه، وابتسم لها ملوّحاً، تصاب بالدوار، وقد تجتاحها الحمّى؟!

لم نكن نلقي بالاً إلى هذا الأمر، ولم يلفت انتباهنا أصلاً. الأحرى، لم نكن نشمئزّ منه، ولم نفكّر للحظة في أنّها امرأة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متصابية تعاني من مرارة ولوعة الحبّ.

حتّى الكتب صارت منثورةً حولي كحديقة غنّاء، فهذه طاقة ورد ابن خلدون الخمريّة الجذّابة، وهذه شرفة زهور صفراء بلونها العسليّ لسارتر، وكمشة ياسمين تأخذ شكل كتاب لمحمود درويش، وأضمومة بنفسج من لدن ابن رشد...

لقد تحوّلت الكتب الموزّعة حولي بفوضى عارمة إلى بستان ممتلئ بالألوان والثمار اليانعة.

كنت سعيداً ومغتبطاً وأنا أرتشف قهوتي.

صمتُّ للحظة، أسكتُّ المسجل فجأة وسكنت، ولم أعد أسمع أو أرى أو أحسّ بأيّ شيء حولي، وعادت الأشياء إلى شكلها الحقيقيّ... لا غيمة ورديّة ولا ستارة هفهافة، ولا نافذة مضيئة، ولا للحاضر لذّاته ولا حدائق زهور!!

فكّرت لوهلة: لمَ كنت سعيداً؟ هل من أجل الماضي الذي كان يقصم ظهري كلّ يوم، أو أنّه الحاضر الذي لا طعم له ولا لون؟ أم لمستقبل مبهم لن يكون إلّا تكراراً حقيقياً للماضي والحاضر؟

أظلمت الدّنيا في وجهي، إلى درجة أنّني أحسست بأنّ السماء ستلقي على الأرض نتفاً من الشحّار والهباب الأسود.

كنت كمَن يجلس في حديقة غنّاء تحت أشعّة الشمس الربيعيّة الناعمة، وإذا بالسماء تكفهّر فجأة، ويبدأ البرق والرعد وتساقط البَرَد، بلمحة كلّ شيء تغيّر!!

وضعت رأسي تحت الصنبور ثانية، وفتحت الماء بغزارة وغسلت وجهي وفركته جيّداً.

خرجت مسرعاً، متجاهلاً تعليقات المرأة العجوز التي أستأجر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غرفتي لديها.

مشيت هائماً على وجهي لا أدري إلى أين أذهب، هل أذهب لأبحث عن عمل أو أدخل مكتبة لأشتري كتاباً ما؟ أو أسعى إلى تناول بعض الطعام لأملأ معدتي الفارغة المتقرّحة؟

قرّرت الذهاب إلى المقهى الذي كنا عادة ما نجلس فيه مع بعض الأصدقاء.

كنت أطرق برأسي محتاراً وأنا أسير عندما اتّخذت قراري في التوجّه إلى المقهى. رفعت رأسي لأكمل سيري، وإذ بها، سيّدة الأكوان السبعة، معشوقتي الغائبة، حبّي الأزليّ، مليكتي الجميلة التي لم يروها بعينّي، كانت تلبس فستاناً مفروشاً بالزهور الملوّنة... ولحظت بعض الألوان على وجهها. لم يصدّقني «برهان» عامل الفرن، صديقي، عندما كنت أقول له إنّها أجمل مخلوقات الله.

تعالَ يا برهان الغبيّ وانظر...

رأتني، ابتسمتُ، وإذا بالشوارع قد أضحت خاوية، أنا وهي فقط، عشّاق السماء والأرض...

لم أعد أحسّ بأيّ مخلوق حولي، إلّا هي.

اقتربتُ خطوة، اقتربتُ خطوة. وددت أن أضمّها إلى صدري وأقول لها معاتباً:

- أين ذهبت؟ لمَ تركتِني وحيداً؟ ألا تعلمين أنّني لست شيئاً من دونك، وأنّك لديّ سيّدة الدنيا؟!

تقدّمتُ خطوة، تقدّمتُ نصف خطوة. وإذ بيدٍ تدفعني وتبعدني عنها، وصوت فحل أجشّ يهدر في أذني:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما بك، هل أنت أعمى؟

- أنا... لم... إنّني...

صرخ في وجهي:

- أعمى وحمار أيضاً؟!

تأبّطت ذراعه، ومضى الاثنان، من دون أن ترمقني ولو بنظرة خاطفة.

لم أعد أستطيع الحركة أو التنفّس.

أحسستُ أنّني قد سقطت كوعاء زجاجيّ على أرض من رخام، وتناثرتُ قطعاً لا تشبه الواحدة منها الأخرى، وتبعثرتُ شظايا، تنظر كلّ قطعة منّي إلى الأخرى بعجز عن الإتيان بفعل الترابط والتلاصق مجدّداً. كنت مبعثراً من رأسي حتّى أخمص قدميّ، وكان شعري مبعثراً، وروحي كذلك مبعثرة.

يا إلهي! عندما تحلّ المصيبة بك، فإنّها تغلّفك من الجهات كلّها، فتضغط عليك وتضغط إلى أن تحيلك إلى مُضغة إنسان، حبّةٍ من شيء، وفجأة تُفلت المصيبة نفسها عنك ويُزال الضغط فينفلت كلّ شيء بسرعة البرق، فتتبعثر وتتحوّل فجأة إلى شظايا.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٦ -

مساءً، دخلت باحة الدار التي أستأجر غرفة فيها. كنت حزيناً. الباحة ضيّقة ومعتمة، تحوي أربع غرف بمساحات مختلفة، ولكلّ غرفة نافذة تطلّ على أرض الدار، وفي كلّ غرفة مستأجرون، كلّ ما يجمعهم هو الفقر الذي يُلقي بعباءته الخانقة على أرواحهم. لقد أتلفهم البؤس والجهل والظلم. في زاوية أرض الدار هناك درج ضيق يتّسع لشخص واحد صعوداً أو هبوطاً.

اتّجهت لأصعد الدرجات الضيّقة إلى غرفتي في الأعلى. إنّها تسع درجات لا أكثر، لكنّ حدّة ميلانها تجعل من هذا الصعود أمراً مرهقاً كأنّك تتسلّق سلّماً بزاوية قائمة، وعند الهبوط يخشى المرء السقوط عن هذا المنحدر ذي الدرجات المتكسّرة والمهترئة.

أحمل بيدي كيساً ورقيّاً فيه برتقالة كبيرة وبعض حبّات اللّوز المملّح، كنت قد اشتريتها لأستعملها كمشهيات عند تناول بعض العرق القاتل الجميل.

لم أستطع أن أتّجه إلى أعلى بسبب عدد من الأولاد الذين يتدافعون ويتراكضون وراء كرة قماشيّة مصنوعة من الخرق والجوارب النسائيّة البالية. زعيق وصراخ وركض في كلّ الاتّجاهات... إنّهم يلعبون بلا وعي منهم لهموم، وهذا أجمل ما في طفولتهم... أنّهم بلا وعي. دخل بين ساقيّ أحد الأطفال ليدرك كرة القماش قبل غيره، فكدت أفقد توازني وأسقط عليه وأهرسه بوزني الثقيل. كان كعصفورٍ بين أرجل فيل. قفزت عنه بحركة بهلوانيّة خرقاء كادت تودي بحياته إلّا قليلاً. نظرت إلى وجهه مستاءً ومرعوباً لأجله ولأجل نفسي. نظر إليّ بعينين صغيرتين لامعتين كعينَي سنونوةٍ بريئة. لم يُلق بالاً للمجهود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي بذلته لأتحاشى أذيّته، فقد شرَقَ مخاطاً كان يسيل من فتحتَي أنفه، وقد أصبحت وجنتاه حمراوين كثمرتي خوخ لامعتين.

- ابتعد عن طريق عمّك يا بندوق. سمعت صوتاً خشناً لرجل قادم من إحدى الغرف.

- ما من مشكلة يا جار، أطفال. قلت للرجل.

- لا تؤاخذنا، أرجوك. قال واقترب منّي، وأراد أن يصفع الطفل على قفا رقبته، لكنّ الصغير قفز كجندب رشيق، فانزاحت يد الرجل عن رأس الطفل من دون أن يصيبه بدقّة، متمتماً بضع كلمات يشتمه بها.

- لعن الله والدك يا بن الصرماية. كان الولد ابنه.

إلّا أنّ كلّ همّي هو أن أغادر هذه المعمعة، وأركن إلى غرفتي، على الرّغم من الزعيق والبعيق وكلّ ما يصدره الأولاد.

رددت وأنا أصعد: - بسيطة، بسيطة يا جار.

دفعت مصراع الباب، فأصدر صوتاً كأنّه يئنّ.

دخلت غرفتي عديمة القيمة، فانتابني إحساس بالأمان والسكينة. أغلقت الباب خلفي، أضأت الضوء، وكان خافتاً شحيحاً، فأن تضع مصباحاً ذا إضاءة عالية، ممنوعٌ منعاً باتّاً كي لا تهدر الكهرباء. هذه كانت أوامر العجوز صاحبة البيت، وهو واحد ضمن شروطها المتعدّدة الجائرة.

نظرت بهدوء إلى محتويات الغرفة الكئيبة الباهتة فلم يحرّك فيّ أيّ إحساس بالضيق. اتّجهت إلى زاوية حيث هناك المغسلة ورفّان صغيران أضع عليهما أشيائي التي أستخدمها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرجت صرّة الورق التي تحوي حبّات اللوز المملّح ووضعتها في طبق معدنيّ صغير، وأحضرت طبقاً خزفياً مكسور الأطراف تزيّنه صورة روميو وجولييت. وضعت برتقالتي في الطبق، ثمّ تناولت سكّيناً ذا يد خشبيّة، وأخرجت زجاجة العرق. غسلت كأساً بشكل متقن، وصببت فيه العرق، وفوقه الماء من الصنبور فتحوّل إلى سائل حليبيّ أبيض، وفاحت رائحة العرق في الغرفة. حينها بدأت أسير الخطوات الأولى نحو الانتشاء والخدر الممتع.

فردتُ صفحة من جريدة كنت قد قرأتها كاملة، حتّى قسم الوفيات والأبراج. جلست متربّعاً على الأرض فوق فراشي الأسفنجيّ، وهممت في أن أرشف الرشفة الأولى. أصغيت إلى الأصوات والضوضاء، فاكتشفت أنّ كلّ شيء قد هدأ وخَفت، وعمّ السلام.

أحسست بنعمة الهدوء، فتناولت رشفة حارقة لذيذة من كأسي، وأخذت حبّة لوز محمّص، وبدأت أمصّها، ثمّ أمضغها بأسنانٍ منتهية الصلاحية... كنت سعيداً.

فجأة، سمعت نقرتين خشنتين على الباب. وقفت وفتحت الدفّة التي تئنّ، وإذ به ذلك الرجل الذي رأيته في الأسفل.

مستغرباً، «أهلاً وسهلاً»، قلت، وأردفت: - تفضّل.

- شكراً، لا أريد إزعاجك. قال بخجل.

كان يرتدي قميصاً داخلياً فيه بعض الثقوب، وبانت رمّانتا كتفيه ممتلئتين بالشعر الدّاكن، الذي يزداد كثافة فوق صدره.

قدّم لي صحناً من الألمنيوم الكئيب فيه بضع ملاعق من الأرز وفي طرفه حبّة بندورة حمراء.

- لقد أسكتُّ هؤلاء الشياطين، ومنعتهم من اللعب. محسوبك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبو ضرغام، نزحت من قريتي هارباً من جحيم الحرب. تفضّل، ليس من قيمتك، لكن أحببت أن يصير بيننا خبز وملح.

أخذت الصحن مرتبكاً وأنا أتلعثم بكلمات الشكر.

- إنّهم أولاد يا رجل... تفضّل.

- شكراً، إن شاء الله في مرّة قادمة... ومضى.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلّما اقتربت نقودي من النفاد، أجدني أهرول مسرعاً إلى ورشة النول كي أعمل لبضعة أيّام، فأجمع الأجور التي تتراكم وأضعها في جيبي، مع التأكيد لمعلّمي الطيّب أنّني لن أغيب عن العمل بعد الآن، وأطلق عيارات نارية من الحَلَف والقسم على كلامي.

كنت أحسّ بأنّه لا يصدّق ما أقول، إلّا أنّه كان يبتسم قائلاً:

- لا داعي لأن تقسم، أنا في انتظارك.

وأمضي مسرعاً لا ألوي على شيء، فقط أريد أن أذهب لأمارس دورة حياتي التي لا هدف لها... لا أدري إلى أين سأذهب، وماذا سأفعل... فقط سأمضي.

في إحدى المرّات، عملت في مهنةٍ أقرب ما تكون إلى اللامهنة، حارس بناية مؤلّفة من عشرة طوابق، ظننتها بداية هكذا لا مهنة، أنت تجلس فقط في غرفة الناطور وتأخذ مرتّبك آخر الشهر، نقطة انتهى.

إلّا أنّني بعد مرور الوقت، تحوّلت إلى خادم يغسل الدرج، وتارة إلى حمّال يساعد الآخرين في إيصال ما يحملونه إلى بيوتهم، وتارة أخرى إلى قاضٍ!!

نعم، صرت أقوم بمهمّات لا يجيدها إلّا القضاة العتاة، فأتدخّل لحلّ نزاع بين امرأة وجارتها مرّة، وبين أولاد البناء، وحلّ نزاعاتهم مرّات عدّة.

وعندما لا يكون لديّ ما أفعله، حسب رغبات الآخرين وحاجاتهم، أنخرط في قراءة كتاب من جملة الكتب التي أحضرتها ووضعتها في غرفة العمل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان كلّ من يمرّ بي يستغرب انهماكي بالقراءة إلى هذا الحدّ، إلى درجة أنّني لفرط استغراقي بالقراءة، في كثير من الأحيان، لا يلفت انتباهي من يدخل البناء ومن يخرج منه.

- هل جئت لتعمل هنا أو لتقرأ؟!

أجفلت من الصوت المفاجئ فوق رأسي.

- أهلاً سيّد أبا نضال... وقفت بسرعة...

كان هذا واحداً من أكثر سكّان البناء فظاظة وجلافة. موظف أين لا أعلم، لكن من سلوكه المتعالي وكراهية الجيران له وخوفهم منه، خمّنت أنّه ذو وظيفة مهمّة في الدولة إلّا أنّه، كما يبدو من تصرّفاته، غير مقتنع بمنصبه الحالي، لذلك تراه يزداد جلافة وعنفاً مع الجميع ما يحقّق له رهبة في نفوس الخلق، يعوّض بها ما فاته من ترقيات مشتهاة.

أكمل مؤنّباً: - بدل الجلوس هنا، وتضييع الوقت في أمور سخيفة، تحرّك واحمل هذه الأغراض عنّي.

- أمرك.

قلت وهرولت إلى يديه كمَن يريد أن يقبّلهما، وأخذت أكياس البلاستيك الممتلئة بالفواكه والمعلّبات وموادّ التنظيف، واتّجهت إلى باب المصعد.

كان يسكن في الطابق السابع. أصبحنا معاً داخل الغرفة الصغيرة التي تتحرّك صعوداً ببطء، وكنت أسمع صوت أنفاسه تخرج من منخريه الواسعين كثور هائج.

أضاء الرقم سبعة، وارتجّ المصعد عند وقوفه بقوة.

وضعت الأكياس أمام باب بيته ونزلت سريعاً إلى غرفتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضيق الحال يجبرني على العمل في مهنة ليست مهنة، وأكثر من ذلك، فإنّ حالة العوز المزمنة التي أعيشها تجبرني على تحمّل بشر لا يمتلكون الحدود الدنيا من الآدميّة والرحمة.

بقيت أشهراً طوالاً أعيش هذا الكابوس.

غرفة ضيّقة، أخلاق معظمهم ضيّقة، الحركة ضيّقة، كلّ شيء ضيّق ويضغط على روحي، النوافذ الوحيدة المشرعة أمامي كانت تلك الصفحات التي أقرؤها.

كنت كمن يقف على حافّة هاوية سحيقة، وثمّة من يحاول إنقاذي، لكن بأن يمسكني من خناقي! إذ إنّ حاجتي إلى المال تكاد تقتلني.

يوميّاً أعود مساءً، فأحسّ بأنّني قد خرجت من السجن المرعب، فأدخل غرفتي - على الرغم من رداءتها - كانت تبدو لي حديقة غنّاء ممتلئة باللّعب الملوّنة والمفرحة.

مرةً، كنت أجلس متسمّراً، منتظراً غياب الشمس لأهرب إلى وكري، فسمعت نقرات ناعمة على زجاج النافذة الوحيدة. التفت كالملسوع لأقدّم خدماتي، وإذ بوجه وقور بشوش لرجل خمسينيّ أنيق دون تكلّف، يبتسم لي وهو يرفع يده محيياً.

عرفته، إنّه الأستاذ عادل، الذي لم يسبق أن طلب إليّ أيّ خدمة، بل كنت، لدماثته، أرجوه أن أساعده في شيء ما، فكان يشكرني فحسب.

- مُرني يا أستاذ؟

- سلامتك، لا أريد شيئاً، فقط أحببت أن أسألك إن كنت تملك بعض الوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- طبعاً... طبعاً، أجبت بسرعة.

- أدعوك إلى فنجان قهوة.

- أنا؟ قلت مستغرباً دَهِشاً.

- إذا لم يكن لديك مانع. أردف.

- هذا يشرِّفني يا أستاذ!

- إذاً، عند انتهاء دوامك أنا في الانتظار. البيت تعرفه.

ومضى.

هذا ما كنت أصبو إليه دائماً، الصداقات مع الناس الطيبين الراقين.

انتظرت بفارغ الصبر انتهاء انتظاري.

قرعت جرس الباب، ففتح لي مبتسماً، وقال: «تفضَّل». دخلت.

منزل أنيق، محتوياته غاية في البساطة والذوق.

جلست مرتبكاً على أريكة رماديَّة اللون لطيفة.

اعتذر منّي وخرج من الصالون.

أدرت رأسي أستكشف محتويات الغرفة. كلّ شيء هادئ ومريح. «اللهم لا حسد»، قلت في نفسي.

أنا أعرف نفسي جيّداً، إنّني ممتلئ بالعيوب والنواقص، لكنّي متأكّد جدّاً من أنّني لا أحسد أحداً على أيّ شيء، مهما كان صغيراً أو كبيراً، تافهاً أو مهمّاً.

تأكّدت من أنّني أمتلك هذه الخصلة الحميدة على نحو أكيد.

إلّا أنّ ما لفت نظري، واشرأبّت له رقبتي، وجود مكتبة كبيرة مرتّبة تحوي رفوفاً ممتلئة بالكتب... دفعني فضولي لأذهب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باتّجاهها وأكتشف محتوياتها، إلّا أنّني خجلت، فبقيت ملتصقاً فوق الأريكة من دون أن آتي بأيّ حركة، وجمدت في مكاني.

دخل يحمل صينيّة نحاسيّة وعليها فنجانا قهوة وركوة ممتلئة بالسائل البنيّ ذي الرائحة الأسطوريّة التي لا يمكن مقاومتها، وكأسان من الماء. نهضت كي أتناول منه الصينيّة.

- استرح. قال بهدوء ولطف.

عدت إلى جلستي. وضع فنجان القهوة وكأس الماء فوق طاولة صغيرة خشبيّة، وجلس على أريكة مجاورة.

- زوجتي وولداي في زيارة.

لم أعرف بماذا أجيب، فقلت ببله:

- أهلاً وسهلاً.

ابتسم وأكمل:

- هل تعرف يا سيّد مبروك - يعرف اسمي - أنّ هذا البناء مرّ عليه عدد ممّن عملوا قبلك، لكنّك أنت الوحيد الذي يلفت انتباهي عندما أخرج أو أدخل؟! في كلّ مرّة أراك تقرأ في كتاب، أو مجلّة، أو قصاصة ورق، فدفعني هذا إلى الاستغراب والاحترام معاً. قلت في نفسي لا بدّ أنّك قد حصلت من العلم والتعلّم على الشيء الكثير، أليس صحيحاً؟

- والله يا أستاذ أنا لم أنهِ المرحلة الابتدائيّة، لكنّي أحبّ القراءة.

قلب شفته السفلى متعجّباً، رافعاً حاجبيه أعلى من حدود نظّارته.

- ممتاز! قال، وأردف:- كم ولداً لديك؟ ارتبكت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا... لم أتزوّج!!

ازداد استغرابه، إلّا أنّه علّق بصوت خفيض: نصيب، الدنيا نصيب. وأكمل:

- ماذا تقرأ عادةً؟

- كلّ شيء. أجبت.

- أقصد، روايات، دراسات، تاريخ، ماذا؟

- كلّ شيء! قلت ثانية.

- لماذا؟ قال.

لم أفهم قصده، ولم أفكّر يوماً لماذا أنا أقرأ، أو لماذا أحدّ ما يقرأ.

بانت على وجهي مسحة الغباء وعدم الفهم من سؤاله، وأحسست أنّني أواجه أصعب سؤال يمكن أن يواجهه المرء طوال حياته. لماذا؟

فهم ارتباكي وحيرتي، فتابع قائلاً:

- المهمّ، هذه المكتبة تحت تصرّفك، فإذا أحببت، في أيّ وقت، يمكنك استعارة الكتاب الذي تفضّله.

- كثّر الله خيرك يا أستاذ... قلت فرحاً.

- قم وانظر ما الذي تودّ استعارته.

تردّدت، فكرّر، كمن يدفع طفلاً لينتقيَ لعبة من واجهة محلّ للُّعب.

- هيّا قم...

وقفت ومشيت ببطء إلى أن وصلت إلى رفوف المكتبة، وبدأت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقرأ أسماء الكتب وعناوينها... لم أعد أنتبه إلى الزّمن الذي قضيته وأنا أسحب كتاباً فأقرأ عنوانه، وأتصفّح أوراقه، ثمّ أعيده إلى مكانه وآخذ غيره.

انتقلت إلى رفّ آخر وآخر، وأنا لا أحسّ بالزّمن...

لقد أصبحت خارجه تماماً.

سحبت كتاباً من على أحد رفوف المكتبة، وكان يحمل عنواناً غريباً (الفراغ)، فقلّبت صفحاته على عجل، وعدت إلى الغلاف ثانيةً، وقرأت اسم د. عادل السعيد. سكنت مكاني، ولم أعد أتحرّك. التفتّ إليه، فرأيته جالساً، يسند رأسه فوق كفّه وينظر بعيداً عنّي.

سعلت كي ينتبه إليّ، ورفعت الكتاب بيدي.

ابتسم لي. تمتمت متسائلاً:

- أستاذ عادل؟ فهزّ رأسه مؤكّداً.

- هذا واحد من الكتب التي ألّفتها.

فقلت متعجّباً:

- أنت لا تقرأ فقط، أنت تكتب أيضاً؟

- نعم.

سألته بسذاجة:

- كيف جمعت كلّ هذه الكتب؟ إنّها كثيرة جدّاً!!

- الزمن. أجاب، وأكمل:

- أنا أستاذ جامعيّ، لذلك كان لا بدّ لي من جمع الكتب عبر الوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل يمكنني استعارته؟

قال لي مبتسماً بحياء:

- أفضّل أن تختار كتاباً آخر، فهذا كتاب متعب، وقد لا يستهويك.

- عمَّ يتحدّث؟ سألت.

- عن مفهوم السلطة والمال، لكن وفق طريقتي، ومن زاوية بعيدة كلّ البعد عمّا يطرحه الآخرون.

- أريد أن أقرأه، إن لم تمانع.

لاحظ الإصرار يشعّ من وجهي.

- كما تحبّ، وإذا ما مللت منه، ولم تستطع أن تكمله، فيمكنك أن تستبدله بكتاب آخر.

لم يعد لي رغبة في البقاء، على الرّغم من اللّطف الغامر الذي أشعرني به الرّجل، فقد وددت أن أطير إلى غرفتي لأبدأ قراءة هذا (الفراغ).

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٨ -

صباحاً قطعت ورقة من الروزنامة المعلّقة على الحائط منذ سنين، إنّها ليست من العام نفسه الذي نحن فيه، بل أقدم ببضع سنوات، كنت قد علّقتها بعد أن أهداني إيّاها شخص لم أعد أذكر من هو.

كلّ ورقة تدلّ على تاريخ اليوم والسنتين الميلاديّة والهجريّة، ومواعيد الصلوات الخمس، وموعد بزوغ الشمس وغروبها... إلخ. وعلى الوجه الآخر لكلّ ورقة توجد حكمة أو بيت شعر أو نصيحة منتقاة.

على ظهر إحداها قرأت جملة غريبة تقول «لا تعد بذاكرتك إلى الماضي، فالماضي هو مملكة الموت!!» استغربت هذه الكلمات، فأعدت قراءتها مرّات عدّة... مَن كتبها يدعوك صراحة إلى ألّا تعود بذاكرتك إلى الماضي لأنّه مملكة الموت، فتساءلت، هل ينطبق هذا الكلام على جميع البشر؟ هل ينطبق علينا؟

Telegram:@mbooks90

فنحن نعشق ماضينا، ونتمسّك بتلابيبه بأقوى ما نستطيع، وهل تغنّينا يوماً إلّا بماضينا التليد العظيم المفخرة؟

فمنّا الوليد ومنّا الرشيد، فلم لا نسود ولم لا نشيد؟ هل نغضّ الطرف عن أندلسنا وغرناطتنا وحدود الصين؟

اضطربت، وكأنّ في رأسي خيول المعتصم تتراكض في كلّ الاتّجاهات بفوضى عارمة.

هل يجب عليّ أن أبتعد بذاكرتي عن حطّين وعين جالوت واليرموك؟

هل عليّ أن أنسى وأتناسى ما فعلته بنا معركة الجمل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا ما أردت ألّا أبتعد كثيراً، كيف لي ألّا أذهب بذاكرتي إلى حرب الأيام الستة وأيلول الأسود والحروب الأخرى التي صبغت حيواتنا بالخيبة والذلّ والريبة والخوف والانكسار؟!

كان أولى بصاحب هذا القول المرعب أن يسمح لي بالعودة إلى الماضي المضيء المشرق ويقول لا تعد بذاكرتك إلى الماضي الأسود المهين الممتلئ بالانكسارات، فهذا سيكون مملكة الموت!

عندها يمكن للمرء أن يصطفي من ذاكرته ما يريده من تاريخ برّاق وماضٍ مشرّف؟!

ليلتها أكلني القلق والتوتّر ولم أستطع أن أغفو دقيقة واحدة!

بزغ ضوء النهار وأنا ممدّد في فراشي الأسفنجيّ البالي. بذلت جهداً بكلّ ما أوتيت من قوة لأركّب المعادلة الخطيرة في دماغي لكنّني لم أفلح.

كلّ شعوب الأرض تمتلك ماضياً وتاريخاً تعتزّ به، فماذا ستفعل بهذا الماضي... هل تهمله وترمي به في غياهب النسيان؟ قطعاً لن تفعل.

حتّى القبائل البدائيّة لها ماض وذاكرة حيّة تتّصل به؟

أليس للإنكليز والفرنسيين والصينيين واليابانيين والمصريين والماليزيين والسوريين والبرازيليين والكونغوليين، والعرب، لهم ماض يعتزّون به إلى الحدّ الذي يجعل من كلّ أمّة على حدة أن تعتقد جازمة أنّها أصل البشريّة؟!

دخلت روحي في دوّامة لا فكاك منها، واستسلمت لهذه المقولة عندما عُدت بذاكرتي إلى ماضيّ الشخصيّ وتذكّرت مَن كان والدي وأمّي وحياتي كاملة، فأصبت بالدوار، وأحسست أنّ قلبي سيتوقّف عن الطرق من شدّة ألمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت في دخيلتي: صحيح أنّ الماضي مملكة الموت!!

لكنّي لم أجد جواباً شافياً يجيب عن هذه المعركة الدامية التي أدخلت نفسي فيها.

لمعت في ذهني فكرة أراحتني بعض الشيء.

عليّ أن آخذ برأي الأستاذ عادل السعيد علّه يملك جواباً شافياً.

وقفت أمامه كتلميذ يريد أن يفهم ولا يستطيع.

قال لي: «ادخل». جلست على الأريكة الرماديّة الأنيقة.

أحضر القهوة التي لا أريدها، كنت أريد جواباً فحسب.

- أنت تسأل عن أكثر الأمور صعوبة وإشكاليّة. إنّ معظم الشعوب التي تريد أن تتقدّم، تفكّر في حاضرها، وتعمل من أجل مستقبلها... أمّا الماضي فإنّها لا تلغيه من ذاكرتها ووجدانها بل تحترمه وتضعه في المكان اللائق بحياة أبنائها.

أمّا نحن، ومع كثير من الأسف والأسى، فإنّنا نعيش حاضراً مضطرباً هزيلاً، ولا نبذل أيّ جهد شريف لمستقبل أجيالنا. إنّ بوصلتنا قد ضاعت، لذلك لم يكن لدينا إلّا ماضٍ نتشبّث بتلابيبه، وهذا الماضي كان قد كتبه الأقوياء ليظهروا عظمتهم وحُسن أعمالهم. والفارق بيننا وبين بعض شعوب الأرض المتحضّرة، أنّهم يحترمون ماضيهم ومَن صنعه، بينما نحن نقدّس هذا الماضي ونقدّس صانعيه، بل ونعبدهم إلّا قليلاً...

ثق يا أخي مبروك أنّ الماضي لا يمكن تغييره، بل يمكن تزييفه، وهنا الطامة الكبرى.

أطرق برأسه للحظات، وأردف:

- عندما تقدّس التاريخ فهذا يعني أنّك عبد له، وبما أنّك عبد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا التاريخ، فهذا يعني أنّك لا تملكه. لذلك، نحن أمّة تلجأ إلى بهاء الماضي كي تهرب من انحطاط الحاضر... اشرب قهوتك.

صمت قليلاً ثمّ سأل: هل قرأت كتابي؟

أجبته ساهماً: لم أنهِهِ بعد.

- ما رأيك في ما قرأته؟

- لم أفهمه تماماً. أجبت ببساطة...

- لا بأس. قال.

مضيت.

إلّا أنّ حقيقة الأمر هي أنّني عندما فتحت الصفحة الأولى من كتاب الأستاذ عادل، قرأت المقدّمة التي جعلت عقلي يتأرجح في كلّ الاتّجاهات، فقد كتب: «الفراغ لا يُدرَك إلّا بنقيضه، ولو كان فراغاً في فراغ فلن ترى شيئاً، ولا تعرف أنّ قلبك كان فارغاً إلّا لو ملأه شاغل، فتفهم ما كان ناقصاً فيك. فراغ القلب من الحبّ لم يكن محسوساً إلّا عندما امتلأ بالوجد».

لم أفهم شيئاً!

أكملت القراءة صفحة تلو صفحة، فكنت كلّما خرجت من لغزٍ غرقتُ في لغزٍ محيّر آخر.

«كلام فارغ يردّدهُ أناسٌ يملؤهم الفراغ... يحتلّونَ مساحات السلطة لتكونَ مهمّتهم تفريغ الأمّة من طاقاتها، وتفريغ الزمن من حضورنا وحضارتنا، إنّهم يقاتلون ويَقتلون من أجل هذا، فللفراغ مهمات عظيمة وخطرة، بحيث يمكننا القول جازمين إنّه ليس في الفراغ فراغ».

أغلقت صفحات الكتاب ورحت أفكّر: هل عليّ أن أعيد القراءة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر من مرّة لأفهم ما يقصد؟ أشكّ في نفسي!!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٩ -

يا إلهي، ما هذا الذي يجري؟! كلّما حاولت أن تفهم معضلة أو مشكلة، تظهر لك مصائب أخرى لا تجد لها جواباً.

لقد وُجِدَت الأديان لتقرّب البشر، بعضهم إلى بعض، ولا شكّ في ذلك!!

فماذا حصل؟

نظر إليّ معلّم «النول» الحكيم الطيب، وعيناه ممتلئتان ماءً وحزناً، وأكمل:

- في البدء انشطر كلّ دين على حدة، هكذا من تلقاء نفسه، دون تدخّل أيّ دين آخر لفعل ذلك، فتفتّت قطعاً وأصبح طوائف ونحلاً واتّجاهات وحركات، وبدأ الناس كلٌّ ينتمي إلى شطر، وليس هناك من همٌّ في آخر جمجمته غير هلاك من هو خارج هذا الشطر... لمَ؟ لا أحد يدري!!

استغربت حديثه، وبدا عليّ هذا، فأردت أن أدلي بدلوي عسى أن أساعد في التخفيف عنه بعض الشيء. قلت:

- قد تكون هذه حكمة ربانيّة يا معلّمي.

تابع بصوت ممتلئ بالرجاء وهو ينظر إليّ مستعطفاً كأنّني قاضٍ أحكم على شابّ ارتكب إثماً، وقال بصوت خفيض:

- لا شكّ في أنّها حكمة ربانيّة، لكن ألا يحقّ لي أن أبحث لأفهم هذه الحكمة؟!

- طبعاً، يحقّ لك، بل هو واجب علينا جميعاً.

- في معظم حياتي كنت أفكّر، لأفهم، فما وصلت إلى جواب شافٍ، فاستسلمت وركنت عند آيته الكريمة، عندما قال تعالى:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}-

نظر في وجهي وتابع: لا أدري لمَ أحدّثك بهذا؟! لكنّي أحبّك وأشعر أنّ قلبك بريء وقادر على أن تسمع شكواي.

أُصبت بالدهشة لكلامه عنّي، واكتشفت أنّني لا أعرف نفسي، وكأنّه يتحدّث عن شخص آخر.

أردت أن أوضّح له خطأه في توصيفي. أردت أن أقول له ما أنا عليه حقيقة، إنّني آبق سكّير، أرتكب المعاصي، وابن حرام أيضاً، لكنّي صمتُّ، كي لا أدمّر في روحه هذه الطمأنينة التي يحسّها نحوي.

ارتفع صوته قليلاً.

- انظر ماذا يجري حولنا، الكلّ يريد أن يقتل الآخر ليثبّت دعائم الله على الأرض، سنّة وشيعة، بروتستانت وأرثوذوكس وكاثوليك، سيخ وهندوس.

في كلّ بقعة على وجه البسيطة ترى من يريد أن يفني الآخر... من أين أتت هذه البشريّة بكلّ هذه الكراهية؟ دائماً ما يشعلون شرارة الخلاف، بحثاً عن مسوّغات للكره، ومن ثمّ القتل، إمّا من أجل دين وإمّا حزب أو قوميّة، أو لون أو طائفة أو قبيلة أو مدينة أو حارة... ولن أبالغ إذا ما قلت إنّهم يقتتلون أحياناً من أجل مباراة رياضيّة.

فتمتمتُ: «على الرّغم من أنّنا جميعاً أولاد آدم وحواء».

قال: نعم، هكذا جميعهم يقولون.

- يا بني، يبدو أنّ الدنيا لم تقم على صراع الخير والشرّ كما هو معلوم. يبدو أنّ الحياة تقوم على شرٍّ مطلق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- والخير؟ سألت مستنكراً.

- الخير هو مدى مقاومتنا لهذا الشرّ. لذلك استطاع ابن آدم أن يجعل من الأديان أحزاباً كبيرة، ومن الأحزاب أدياناً صغيرة.

لم أفهم ما يرمي إليه، لكن كنت على يقين بأنّنا نحن البشر قد ارتكبنا خطأ لا يمكن الرجوع عنه... أو لا نريد أن نرجع عنه.

وأكمل خائراً:

- هل تدري يا مبروك أنّ الكلّ في جهاده وقتاله يرفع راية الحقّ؟! وكرّر هذه الكلمة مرّات ومرّات.

- الحقّ... الحقّ... الحقّ، يا لهذا المصطلح القاتل!! الكلّ يطحن الآخر باسم الحقّ، لكن المشكلة أنّه عندما يتصارع الحقّ مع الحقّ فإنّ المنتصر الوحيد هو الفجيعة!!

وتمتم بصوت خفيف كمن يحدّث نفسه.

- لا أعرف، أخشى أنّني لم ولن أعرف.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٠ -

استيقظت كأنّني لم أغفُ لدقيقة واحدة، جسمي محطّم، ومضعضع، ورأسي يؤلمني بشدّة، وحلقي جافّ كقطعة ليف يابس.

نهضت بتثاقل وكسل، فقرّرت أن أحلق لحيتي وأرتّب هندامي قدر ما أستطيع. جلّ اهتمامي أن أذهب لألتقي الأستاذ عادل السعيد علّه يفسّر لي ما فهمته وما لم أفهمه من حديث صاحب النول.

يبدو أنّ حديثه كان السبب الأساس لعدم راحتي وقلقي في أثناء نومي.

كان الأستاذ عادل قد أعطاني رقم هاتفه الجوّال، قبل أن أهجر العمل في حراسة البناية، ولقد خبّأت الورقة في مكان آمن كي لا أفقدها.

أخرجت الورقة ونزلت بها من غرفتي بسرعة وحيد القرن إلى أرض الدار، وكلّي أمل في أن أجد أحداً أستعير منه هاتفاً لأجري اتصالي. لا أريد أن يكون لديّ هاتف نقّال، هذا الجهاز المفيد القاتل، علماً أنّني لم أرَ أحداً، كبيراً أم صغيراً، فقيراً أم غنياً، إلّا ويحمل هذا الشيء المريب بتباهٍ.

وكلّ من يسألني مستغرباً عدم امتلاكي لمثله، كنت أجيبه بأن ليس لديّ أرقام لأتّصل إليها.

صادفتني امرأة تسكن وأولادها الأربعة في غرفة من غرف الدار، وكانت تكنس الأرض وتلملم أوساخها.

- صباح الخير. قلت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صباح الخير. ردّت بتعب.

تردّدت لوهلة في أن أسألها حاجتي، فقد كان الوضع غاية في الغرابة، لكن تجرّأت، وسألتها: عفواً، هل عندكم هاتف؟

نظرت إليّ باستغراب، وابتسمت كاشفة عن أسنان بانت جذاميرها قائلة:- الأولاد.

وصاحت بأعلى صوتها، وبنفس واحد: بهاء، يوسف، مراد، كامل، سعاد.

والتفتت إليّ يجلّلها الكبرياء، وأردفت:

- كلّهم يمتلكون جوّالات.

ظهر فجأة من باب إحدى الغرف أولاد تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والرابعة عشرة، بثياب رثّة وألوان كالحة.

- أحدكم يعطي عمّكم هاتفه. قالت.

ركض أصغرهم إلى الداخل، وما هي إلّا ثوان، أحسستها دهراً، إلّا وقد أتى لي بجوّاله.

- شكراً، فقط سأتّصل مكالمة واحدة بصديقي.

أعطيته الورقة فطلب لي الرقم، وناولني الهاتف.

الكلّ يحدّقني، أحسست بالحرج، فابتعدت خطوتين وأدرت ظهري. أجابني الأستاذ عادل من الطرف الآخر بصوته الدافئ.

عرفّته بنفسي، وطلبت إليه موعداً لأراه. كنت أتحدّث بصوت جهوريّ مسموع كي لا يظنّ أحد بأنّني أتحدّث إلى طرف أنثويّ أو ما شابه ذلك.

أعدتُ الهاتف إلى الفتى، وشكرته من كلّ قلبي، شكرتهم جميعاً. أخرجت من جيبي ورقة نقديّة وقدّمتها للصغير عربون شكر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتقديمه لي هذه الخدمة، إلّا أنّ أمّه نهرته وهي تؤنّبني:

- عيب يا جار، لا داعي.

لحظت من نظرتها وابتسامتها الخجول رغبةً دفينة معاكسة، فدسست القطعة النقديّة في يد الصبيّ، وانصرفت. إلّا أنّ حيرة كبيرة أصابتني وأنا أسير بخطواتي مطرقاً. فقرهم يكوي الأحشاء، ولا يجدون ما يُقيتهم إلّا بشقّ النفس، ومع هذا لديهم هواتف عدّة يحملونها متباهين، حقّاً إنّنا نعيش عصر العجائب، في مجتمع العجائب!!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١١ -

طرقت الباب بهدوء. فتح الباب واستقبلني الأستاذ عادل السعيد بترحاب غير مبالغ به.

دخلت بخُطى صغيرة كي لا أثير أيّ صوت وجلبة. بادرني:

- زوجتي في الوظيفة، والأولاد في مدارسهم، تفضّل.

كنت قد علمت منه عبر الهاتف أن لا عمل لديه اليوم.

أحضر قهوتنا والماء العذب، وجلس.

- لماذا تركت العمل هنا في البناء؟ سألني.

- لا أدري! قلت له. وأكملت: يبدو أنّ قدري ألّا أثبت في عمل!

ابتسم هازاً رأسه بتفهّم، وقال كلمات لم أفهمها، أمدح أم قدح؟:

- أنت كائن بريّ يا صاحبي. ورشف من فنجانه الأبيض...

لم أعلّق، ولم أستفسر، كنت مطرقاً فقط، أحسّ بأنّ هناك شيئاً أريد قوله فسألني:

- هل قرأت كتابي؟

- الفراغ؟... نعم... طبعاً.

حرّك رأسه كمن يقول: ماذا؟ قلبت شفتي السفلى أن: لا أعرف.

- ما رأيك؟ سألني.

تلعثمت، ولم أستطع أن أستجمع أفكاري.

كنت مضطرباً ومشتّت الأفكار. خذلتني ذاكرتي فأصبح عقلي كمن أضاع كلّ شيء فيه. أحسست أنّ رأسي أصبح كغسّالة أوتوماتيك، تدور بسرعة هائلة وفي داخلها كلّ الأشكال والألوان، تتخبّط، ويتداخل بعضها ببعض في رغوة خانقة مخيفة...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتبه لارتباكي، فحاول مساعدتي كمدرّس يقف أمامه تلميذ قد نسي القصيدة كاملة، فقرّر أن يلقي إليه بطوق نجاة فيذكّره بمطلعها، حيث قال لي:

- ما قرأتَه من الكتاب، أدخلك في دوّامة بلبلت تفكيرك.

تشبّثت بطوق النجاة، وانطلقت في الحديث مسترسلاً ومضطرباً.

- نعم، نعم أنا مشوّش، ليس فقط بسبب ما فهمته من كتابك، لكن بما سمعته من معلّم النول أيضاً. لقد تضاربت الأفكار في رأسي بحيث إنّي أصبحت تائهاً لا أستطيع أن أرسوَ على برّ، فما قاله النسّاج المعمّر هو أنّ الناس مفطورون على الشرّ والقتل كي يسيطر طرف على آخر، وأنت ترمي في كتابك إلى أنّ الناس يقاتلون من أجل الحصول على فراغ أكبر؟!

حاول الأستاذ عادل جهده أن يبسّط لي الأفكار من دون جدوى، إلى أن سألني:

- في البيت الذي تسكن، كم شخصاً يعيش فيه؟

بدأت أحسب بذاكرتي، بصوت عالٍ:

- العجوز صاحبة الدار. أبو ضرغام وزوجته وأربعة أولاد. المرأة المتعبة التي أراها دائماً تكنس أرض الدار دون أن تنظّفها مع أولادها الذين يأكلهم الفقر، وهم أصحاب الهواتف النقّالة. أبو سماح العتّال في سوق الهال، الذي يخرج من الصباح قبل طلوع الضوء، ويعود ليلاً، متى لا أعلم، وامرأته وخمسة أولاد وتبدأ أعمارهم من ثلاث سنوات إلى أكبرهم، ابنته المراهقة سماح النحيلة ذات الستة عشر عاماً. وأنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما يقارب العشرين شخصاً بين كبير وصغير، كلّكم تعيشون في هذه الـ...

لم يكمل، فأكملت أنا.

- في هذه الزريبة!

- سمّها ما شئت. المهمّ، لو فكّرنا في أبي ضرغام وأسرته، لماذا برأيك يعمل ويكدّ ليل نهار؟

- كي يطعم أولاده وزوجته.

- هذا من حيث الظاهر، أمّا حقيقة الأمر فهو يريد بالدرجة الأولى أن يحصل على غرفة أخرى كي لا يبقوا مكدّسين فوق بعضهم بعضاً، أليس كذلك؟

- صحيح. أجبت.

- إذاً، هو يريد أن يكون أقوى ماليّاً ليحصل على فراغ أكبر. انظر إلى من يكون وضعه الماليّ أقوى، يكون كلّ فرد من أسرته في غرفة مستقلة، ويكون الفراغ أكبر حول كلّ واحدٍ منهم.

- صحيح، أجبت.

- أمّا إذا كان ثرياً جدّاً فإنّ قصره يحوي مساحات هائلة من الفراغات، وقد لا يصادف أحد أفراد الأسرة فرداً آخر ربّما في أيّام، فكلّ واحدٍ منهم يعيش ضمن فراغه.

والآن، انظر ما إذا كان المرء في موقع السلطة والقوّة الهائلة والمال العظيم، فإنّ مساحات من الفراغ يعيش فيها ويتجوّل داخلها ويقاتل ويقتل من أجل الإبقاء عليها.

تساءلت في نفسي: «هل يمكن للمرء أن يقتل من أجل الفراغ، أو أن يعبث بمصائر الأمم والأفراد، ويحوك المؤامرات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدسائس، ويوصل الشعوب إلى الحضيض من أجل فراغ؟»

- لقد اختلف الدارسون والفلاسفة والساسة في مسألة أرّقت البشريّة: لماذا يسعى الإنسان إلى السلطة، والقوة، والسيطرة؟ لماذا يسعى إلى جمع المال؟ ليس كما يقال إطلاقاً.

أكمل الأستاذ عادل السعيد كلامه، وهو يوضّح لي ما يرمي إليه في كتابه:

- إنّه يسعى إلى كلّ هذه الأشياء من سلطة وقوة ومال ونفوذ كي يحقّق لنفسه أكبر مساحة من الفراغ. إنّه يريد أن يبعد الجميع عن حيّزه... عن فراغه... يقرّبهم متى يشاء، ويبعدهم متى يشاء، ليهنأ بفراغه الذي قَتل وقاتل من أجله... فالفراغ يكون تبعاً للقوّة والجبروت، فكلّما تضخّمت القوة ازداد البطش وأصبح الفراغ أعظم.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٢ -

خرجنا من الخمّارة المعتادة أنا وأبو سماح، جاري في الدار، الذي يعمل عتّالاً في سوق الهال، وكما قلت كان لديه خمسة أفواه يحار كيف يطعمها. ابنته النحيلة ذات الستة عشر عاماً، قد بان قفصها الصدريّ من شدّة النحول، وبرزت عظمتا وجنتيها كذلك، وتزدادان بروزاً إذا ما تصادف وابتسمت... لقد أسماها «سماح»، بسبب عشقه السابق لابنة الجيران التي كان اسمها «سماح»، ورفض أن يُلقّب بأبي موفّق، وهو اسم ولده الذي أتى إلى الدّنيا بعد أخته البنت مباشرة، هكذا أخبرني.., وبسبب يباس رأسه فإنّ معارك محتدمة كانت تنشب بينه وبين زوجته.

- إنّها ابنة عمّي، زوّجوني إيّاها رغماً عنّي. أفصح لي عن مكنونه الذي يعتقد بأنّه سبب تعاسة عمره كاملاً.

نسير في الطرقات، وقد لعبت الخمرة برأسينا كما تشاء. كنت موقناً بأنّ الشوارع والأبنية والأعمدة هي التي تترنّح وليس نحن؟! فمرّة يتّكئ على مرفقي وأسنده، ومرّة أفعل أنا فيسندني، وفي كلّ مرّة كنّا نخرج ثملين بخطوات نظنّ أنّها ثابتة، لكنّها غير متناسقة. كان أحدنا عندما يشكو همومه، يتحوّل الآخر إلى رجل حكيم مهمّته الوعظ والحكمة والإرشاد، فكنّا نتبادل الأدوار هكذا دون سابق تفكير.

Telegram:@mbooks90

ليلتها، كنت في موقع الواعظ النبيه، فأردت أن أدلي بدلوي، فقلت له بجديّة جادّة:

- يا أبا سماح، زوّجوك غصباً، هذا نصيب، أمر الله، لكن لِمَ خمسة أولاد، أدامهم الله لك، وأدامك فوق رؤوسهم؟!

- نصيبهم أن يأتوا إلى هذه الدّنيا، لقد أقنعونا بأنّ الولد يأتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويأتي رزقه معه، ثمّ يا أخي، لا اعتراض على حكم الله.

- وما دخل الله بهذا يا رجل؟! لو كانوا بدل الخمسة اثنين فقط، ألن تكون حياتك وحيواتهم أرحم وأهنأ؟

توقّف عن السير، وتوقّفت، وشبه مترنّح قال:

- لقد أتوا وانتهى الأمر. لم يعد في اليد حيلة، فهل أبيعهم، أو أقتلهم؟!

وقفزت من عينيه الحمراوين نقطتان.

أحسست بالارتباك بعد أن علمت أنّني قد أسأت من دون قصد.

- لا يا رجل، ليس هكذا، فقد تألّمت لألمك.

فردَّ بصوت أجشّ:

- هم ليسوا ألمي يا أخي مبروك، ألمي تلك المرأة المسكينة التي لا أشعر بأيّ حبّ نحوها، زوجتي.

وأردف:

- على فكرة، هي تحبّني حتّى الموت، وتغار عليّ. إنّها تكره ابنتها سماح بسبب اسمها فقط، لقد صارحتها بحبّي لسماح الأصليّة، ولم أخفِ عنها هذا الموضوع.

- عليك أن تنساها. قلت.

- لم أستطع. قال.

أكملنا سيرنا مترنّحين، وبدأ يحدّثني كيف أنّه يحاول إيذاء مشاعر زوجته قاصداً، فالمرأة أخذ يتساقط شعرها يوماً بعد يوم بسبب ثعلبة غزت جلّ رأسها إلى أن تحوّل أصلعَ تماماً، ما عدا بعض الخصلات القليلة النازلة من عند السالفين والخلف أيضاً، وكانت تضع منديلاً مزركشاً له شرابات تتدلّى إلى نصف جبهتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتعوّض إحساسها بفقدان غرّتها، وتربط المنديل بإحكام، وتترك تلك الخصلات القليلة من الشعر تظهر على جانبي وجهها، حتّى وهي نائمة، وكان كلّما نظر إليها يبربر بصوت شبه مسموع.

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

ثمّ روى لي أنّه دخل ذات ليلة متأخّراً بعض الوقت، وكانت زوجته تغطّ في نوم عميق من شدّة التعب والإرهاق، وكان قد انزاح المنديل عن كامل رأسها، ولمّا اقترب من الفراش ليتمدّد وينام، نظر إليها وتمتم مستاءً: «ما هذا يا أمّة الله؟!» وأخذ يربّت على طاسة رأسها وهو يقول:

- أمّ سماح... أمّ سماح... أبعدي مؤخرتك عن المخدّة، أريد أن أنام.

فانتفضت من نومها جزعة، وبحثت في العتمة بيديها الاثنتين عن المنديل، وربطت رأسها به كيفما اتفق، بينما هو أدار ظهره وقلب على جنبه وغرق في النوم.

حاولتُ أن ألومه على طريقة معاملته لزوجته وأفهمه أنّها ليست فقط صلعاء، بل هي ممتلئة بندوب الحياة وتقرّحاتها, إنّها امرأة قد اهترأت بفعل الدنيا، وليس من الإنصاف أن تزيد بلواها بهذه الأفعال وهذه التصرّفات.

- عليك أن تشعرها ببعض الحبّ يا رجل. يجب أن تساعدها كي تسعد وتفرح ولو قليلاً...

أصبحت لحظتها كأولئك الثملين المنفصلين عن الواقع، والمتوهمين أنّهم يطلقون حقائق باهرة.

نظر إليّ أبو سماح بعينين حمراوين ممتلئتين بالسخرية والاستخفاف متسائلاً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أريها السعادة والفرح؟!

أجبته مشرئباً متشاوفاً، وبثقة عمياء:

- نعم، قليلاً من السعادة والفرح يا أخي.

ابتسم كاشفاً عن فم ممتلئ بالخردة.

- الفرح والسعادة يا حبيبي مثل الله، مستحيل أن نراهما!!

خرست، ومشينا صامتَين.

أمَّا أبو سماح فقد وضع يديه خلف ظهره، وكان محنياً مطرقاً وهو يتمتم ساخراً: «قال سعادة قال!».

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٣ -

لم تكن حاجتي الماديَّة هي التي دفعتني إلى الذهاب إلى مشغل النول، كعادتي كلّما أفلست أو أصابني العوز، بل كنت أحسّ بشوق طاغٍ وغامر يدفعني إلى الذهاب كي أرى صاحب النول، معلّمي...

دخلت متلصّصاً مشغلَه البسيط الصغير، فشعرت من فوري بالطمأنينة والدفء والأمان. لا شيء يُسمع إلّا صوت المكّوك جيئة وذهاباً، مع طرقات العارضة الخشبيّة التي ترصف الخيوط الملونة بثبات، ودون خلل.

انتبه لقدومي، فتوقّف عن العمل، ونظر إليّ بعينين عاتبتين وابتسامة مسامحة. كان وجهه يشعّ طيبة صادقة.

- أطلت الغياب. قال.

- أتشرب شاياً. سألته بصوت أردت أن يكون أخفض ما يمكن.

هزّ رأسه أن نعم.

وكولدٍ أخذ الرّضا من أبيه بعد خطيئة ما، أحسست أنّني بكتلتي الضخمة وددت أن أقفز طرباً. لم أفلح.

- أصنع شاياً لا نظير لمذاقه.

فأردف متمتماً:

- أعرف.

أسرعت إلى الزاوية التي تحوي كلَّ الحاجات، من إبريق وأقداح وسكّر وشاي وموقد غاز صغير، وعاد هو إلى العمل ثانية، وابتسامة شفيفة ارتسمت على وجهه. كنت سعيداً وممتنّاً لأنّ هذا الكائن موجود في حياتي، كامتناني وسعادتي عندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسمع أغنية مبهجة أو أشاهد مصادفةً حقلاً من البنفسج.

طبعاً، لم أرَ شيئاً كهذا في حياتي... قرأت عن حقول البنفسج في مكان ما.

جلسنا على كرسيين متقابلين نرتشف الشاي العقيقيّ بصمت ممتع... كنّا نتحدّث أحياناً في وقت الراحة عن الكتب وعن مضامينها، فقد كان يسعده أنّني أحبّ القراءة، وينتظر منّي بشغف أن أشرح له ما فهمت، ويعدّل الأفكار التي وصلتني من كتاب ما، وفي معظم الأحيان كان يصوّب لي الأفكار التي أطرحها أمامه من دون تحفُّظ أو حرج.

أتحدّث أمامه كما أنا، دون تزويق أو تجميل، كما أنّني كعادتي دائماً لا يحرجني أن أقول إنّني لم أفهم. كنت كمَن يحدّث نفسه.

أسئلة كثيرة كانت تجتاحني، ولا أجد لها جواباً، أطرحها عليه، وأنتظر. لم أترك موضوعاً أو مشكلةً تخطر في ذهني إلّا فردتها أمامه من دون تردّد... عن المرأة والجنس والمحرّمات والمحلّلات، وكلّ شيء.

أحياناً كنت أستغرب جوابه في مسألة ما عندما يقول لي على نحو بسيط وعاديّ: لا أعرف!!

كنت أظنّ أنّ ما من سؤال أو استفسار إلّا ولديه جواب عنه.

قال:

- يا مبروك... يا بني، لا يستطيع الإنسان أن يعلم كلّ ما يرغب في معرفته، بل على العكس تماماً، فأنا قرأت كتباً كثيرة، وفي شتّى الموضوعات، وكان جلّ همّي أن أصل إلى الحقيقة، لكنّ الغريب في الأمر هو إحساسي بأنّني أصبحت كالحفرة، كلّما أخذت منها أكثر أصبح تجويفها أكبر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لم أفهمك؟!

- ما أريد قوله، إنّني كلّما قرأت أكثر، ضاعت بوصلتي وضِعت معها، وكلّما عرفت أمراً، أدركت أنّني لا أعرف أموراً. إنّ الحفرة تكبر في داخلي، والخواء يزيد، إلى درجة أنّني كنت أصحو في هجيع الليل وأتضرّع إلى خالقي وأناجيه قائلاً: «يا إلهي، أبعد عنّي هذا الألم»، إنّ عدم الجدوى يكبر في روحي فأجدني أتضرّع ثانية وأقول: «إلهي، لا تفقدني الجدوى».

تحوّلتُ إلى كتلة جامدة لا حراك فيها، حتّى صوت تنفّسي الجاموسيّ حاولت كتمه كي لا أسهم في تشتيت أفكاره. كنت أجلس على الكرسيّ ككرسيّ.

فأكمل:

- تغزو روحي أسئلة كثيرة فلا أجد لها جواباً شافياً. تتنازعني الأفكار، وتتلاطم في داخلي كأمواج بحر هائج، وتضيع بوصلتي، ولا أرى شاطئاً أرسو فيه.

ثمّ زفر زفرة طويلة وأكمل:

- الإنسان، الإنسان يعذّب، يعذّبني، في حلوه ومرّه، في خيره وشرّه يعذّبني!! لماذا، وكيف، وعلام؟! علام يتصرّف هكذا بوحشيّة دونَ سائر الكائنات؟! الأشجار، والحيوانات والديدان، إنّ لجميعها أرواحاً وأحاسيس ومشاعر وأمنيات قد لا ندركها، لكنّني أثق بأنّها موجودة... ألا تأكل؟ ألا تتنفّس؟ ألا تتكاثر؟ ألا تموت؟ ألا تتألم؟... الحيوانات تقتلُ، إمّا جوعاً وإمّا خوفاً.

أمّا البشر فإنّهم يقتلون أحياناً للمتعة، لمجرّد المتعة! ألم نستطع أن نوجد قانوناً أرقى من قانون الغاب الراقي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألف سؤال يتقاذفني يمنة ويسرة، تحت وفوق، شرقاً وغرباً ولا جواب وافياً يساعدك في وضع قدميك على الأرض بثبات.

أخذ نفساً عميقاً وزفر طويلاً مرّة أخرى كمن ضاقت روحه عليه، لكنّه في حديثه هذا أحسست أنّه تحوّل فجأة إلى شابّ يافع ممتلئ بالحيوية والنشاط والحبّ. كان وجهه نضراً، وعيناه تبرقان وتشعّان ذكاءً وقوة. لم أعد أراه ذاك الرجل الهادئ الوقور المسنّ بل كان شيئاً آخرَ لم آلفه سابقاً. كنت أحسّ بما يشعر به، لكنّني لم أفهم معظم كلامه!

استطرد في حديثه قائلاً:

- انظر مثلاً، عندما تزدهر أمّةٌ ما، وتمتلك كلّ أسباب القوّة والحضارة، في العلوم والفلك والموسيقا والفنّ والطبّ والعمارة، أي أنّها تصبح بكلّ المقاييس أمّة قويّة، فماذا تراها تفعل؟

سأل وحدّق إلى عينيّ، فأحسست بالرعب كتلميذ باغته أستاذه بسؤال لا يخطر في بال.

فسألته بدوري:

- ماذا تفعل؟

فردّ بسرعة:

- أوّل شيء تفعله أنّها تجهّز جيوشاً جرّارة تتناسب مع قوّتها وعظمتها وتغزو من يجاورها من أمم أقلّ قوّة... تدمّر، تسبي، تحرق، تخرّب، تقتل... إلى أن تسيطر ويستتب لها الأمر، فتوسّع محيطها، وتهاجم وتغزو أمماً أبعد حتّى تصل إلى مرحلة لا يعلم فيها المركز ما يحدث في الأطراف.

تذكّرت حديث الأستاذ عادل عن الفراغ. كلّ الأمم تستبيح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمم الأخرى للحصول على فراغ أكبر!!

تنفّس حينها الصعداء، وسكن اضطرابه وفورانه قليلاً. رشف قليلاً من الشاي الذي صار بارداً، وأكمل بهدوء اليائس:

- عُد إلى التاريخ، فمنذ آلاف السنين لم تزدهر أمّة على وجه الأرض عبّرت عن قوّتها بالإبداع والشعر والفنّ والموسيقا والأفكار النبيلة، بل عبّرت عن هذه القوّة بالقتل والعنف وسحق أرواح الغير وسرقتهم!!... مبروك...

- نعم. بسرعة أجبت.

- ما السبب في رأيك؟

أحسست أنّني قد رسبت في امتحان لا أعرف من حشرني فيه. استجمعت أفكاري سريعاً.

- أنت قلت إنّ الإنسان مفطور على الشرّ، أليس كذلك؟

- هذا صحيح. لكن أعتقد أنّ هناك شيئاً آخرَ.

- ما هو؟

- التملُّك!!

- لم أفهم؟!

- التملُّك قد يقترب من الغريزة، فالإنسان هو الكائن الوحيد في الكون الذي يرغب في أن يستحوذ على أكثر من حاجته، وهنا الطامة الكبرى... الجشع!!

خشيت هذه المرّة أن أقول له إنّي لم أفهم. فأدرك ما أنا فيه من حيرة، فأكمل قائلاً:

- هل سمعت أو رأيت قطيعاً من الذئاب يسعى إلى اصطياد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشرة غزلان دفعة واحدة، بحيث يفكّر في أن يأكل واحداً ويخبّئ التسعة الباقية؟!

- لا... قلت.

- لأنّها تصطاد حاجتها فقط، أمّا ابن آدم، فإنّه يريد أن يصطاد كلّ شيء ليكدّسه، حتّى لو لم يكن يحتاج إليه.

أدركت من فوري أنّه بهذا المثال يقصدني أنا حصراً، فأنا لا أعمل إلّا إذا احتجت إلى مال يوفّر كفاف يومين أو ثلاثة على أبعد تقدير، فقرّرت أن أحتجّ على مثاله.

- إذاً، أنت تحسبني ذئباً أو حيواناً ما.

فقال مبتسماً:

- وهذا أنبل ما فيك. ليتني أصل إلى ما أنت عليه.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٤ -

توطّدت علاقتي بالأستاذ عادل إلى القدر الذي يؤهّلني أن أذهب إليه متى ما أشاء. عرّفني إلى زوجته التي تعمل معلّمة في مدرسة ابتدائيّة بالقرب من منزلهما، كما أنّ طفليه أصبحا يأنسان لي على نحو كبير، إلى درجة أن طلبوا جميعاً إليّ أن أبقى لأشاركهم الغداء.

في البدء رفضت بشدّة، وتحجّجت بأنّني مشغول جدّاً، كي أتهرّب من هذه اللمّة التي لم أعتدها طيلة حياتي. إلّا أنّهم أبدوا إصراراً أحرجني، حتّى إنّ الولدين تعلّقا بسترتي، إلى أن رضخت وقبلت البقاء على مضض من شدّة الحرج، وكنت مغتبطاً.

وُضِعت صحون على الطاولة المركونة في زاوية الصالون، وملاعق نظيفة. كان كلّ شيء نظيفاً إلى الحدّ الذي لم آلفه يوماً.

همست للأستاذ محرجاً أنّني أريد أن أغسل يديّ، فأشار إلى الباب المؤدّي إلى الحمّام. تحرّكت بدقّة لأظهر أكبر قدر أستطيعه من الرشاقة والأدب. دخلت الحمّام، وكانت المغسلة بيضاء كالثلج، نظيفة لمّاعة، ودُهشت لبريق المكان. ثمّة مناشف ملوّنة بألوان زاهية، وصنبور الماء يلمع كالفضّة وأكثر.

تناولت قطعة الصابون المعطّرة، وتحت الماء بدأت أرغي الصابون، مرّة ومرّتين وثلاثاً وخمساً، أفرك يديّ، وأغسلهما بالماء ثمّ أرغي الصابون ثانية، أريد أن أنظّفهما بطريقة لم أفعلها من قبل...

أحسست أنّني أطلت المكوث. لقد سرقني الزمن دون أن أنتبه، فأخذت منشفة ذات لون خمريّ غامق كي لا أترك عليها أثراً إن وجد...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرتُ إليّ في المرآة، وقرّرت من جديد أن أدعك وجهي بالماء والصابون، فركت، فركت، فركت، إلى أن احمرّ وجهي القاتم أصلاً، فأحسست بالانتعاش والرضا عن كلّ النتائج. عبثاً رتّبت هندامي، وكان في مقدوري أن أبقى هنا لساعات وأيام من دون ملل، فقط أن يكون في حوزتي بضعة كتب وأبقى... إنّه النعيم الذي يتحدّثون عنه. نعم كنت في النعيم!

خرجت إلى الصالون وكان الجميع جالسين في انتظاري...

لم يعلّق أحد على تأخّري.

- تفضل.

قال لي الأستاذ عادل، وأشار بيده إلى كرسيّ. استغربت، فقد كان الكرسيّ على رأس الطاولة؟! الأمّ وطفلها إلى يميني، والأب وطفله إلى يساري. إنّه الكمال في الحياة، فكلّ شيء لطيف ومرتّب وحنون.

كم عليّ أن أعمل وأمتلك من الحظّ لأحظى بحياة كهذه؟! بفراغ جميل كهذا؟ حسب رأي الأستاذ. إنّ السماء أقرب إليّ من حلم كهذا.

لم أشعر ولو بقدر ضئيل بالحسد، إطلاقاً، بل كنت سعيداً بأن تعيش أسرة كهذه مثل هذه الحياة، ليست قليلة وليست كثيرة، إنّها على القدّ تماماً. وكنت سعيداً جدّاً أنّني أتذوّق شيئاً منها.

ثمّة شعور طاغٍ بالفرح والأمان سيطر على كلّ مسامات جسدي.

اتّجهت إلى كرسيّ الوجاهة الذي دُعيت إليه، فسحبته على مهل إلى الخلف لأصنع لكتلتي المتضخّمة مكاناً لها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلست بهدوء، بهدوء جداً، إلّا أنّ وزني الزائد قد أطاح بالأرجل الأربع للكرسيّ المسكين، وهويت فوقه... لقد تحطّم وتحوّل إلى أشلاء!!!

جفلت وأنا أقع على الأرض، فتدحرجت من فوق فراشي الأسفنجيّ البالي، لأصحو مرعوباً من حجم الخجل الذي انتابني أمام الأستاذ وأسرته...

نظرت حولي، وكان الليل لا يزال يلقي بظلال النعاس على كلّ شيء. شكرت الله أنّ ما حدث لي لم يكن إلّا حلماً، وأقسمت في نفسي ألّا أقبل دعوتهم حتّى لو أدّى هذا إلى حرقي...

جلست متربّعاً وقد طار النوم من عينيّ.

أشعلت لفافة تبغ في العتمة وبدأت أدخّن ساهماً صامتاً. كنت أسمع صوت هسيس احتراق التبغ من سيادة الصمت...

بقيت جالساً في مكاني فوق الفراش إلى أن بدأت أصوات بعض العصافير تصل إلى مسمعيّ، وها هي ذي خيوط ناعمة من ضوء الشمس تكشف عن بعض محتويات غرفتي. وأوّل ما بدأت عيناي تميّزانه كانت مغسلتي الكئيبة القذرة، فقرّرت من فوري أن أنظّفها كي أجعلها تلمع كتلك التي رأيتها في المنام. وضعت بعضاً من مسحوق التنظيف اليابس بسبب قِدمه وقلّة الاستعمال، على قطعة إسفنج في حجم الكفّ، كانت قد انفصلت عن فراشي من عند القدمين، وبدأت أفرك حوض المغسلة مثلما كنت أفرك وجهي في حلمي، وأشطف بالماء ثمّ أعيد القحط والفرك، إلى أن أنهكتُ تماماً وبدأت ألهث من شدّة الإرهاق.

لم تعد خيوط الشمس خيوطاً بل أصبحت الشمس كأنّها فردت سجّادة ضوءٍ شفيفة على كلّ شيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرت إلى المغسلة، وتعجّبت! فبعد كلّ هذا العناء لم يتغيّر فيها شيء، فتأكّدت من أنّها لم تكن قذرة فحسب، بل كانت مهترئة ومصابة بكسور سود عدّة، ولا يمكن تنظيفها!

خرجت من غرفتي آملاً في أن أحظى بشيء...

نزلت السلّم المتهالك المؤدّي إلى أرض الدار، واتّجهت إلى باب الخروج. كان أبو سماح جالساً على كرسيّ قزم قصير الأرجل، وقد وضع جبهته على كفّه اليمنى مطرقاً، فلم تطاوعني نفسي أن أغادر من دون أن أسأله ما به.

- صباح الخير يا أبا سماح.

ردَّ بهدوء:

- أهلاً سيّد مبروك.

- ما بك، لماذا تجلس هكذا؟

- إنّني أنتظرك.

- تنتظرني؟!

هزّ رأسه، أن أجل.

سألته باستغراب: خير إن شاء الله؟!

ردَّ بسرعة: خير، خير، لا تقلق!

- ماذا تريد منّي؟

اقترب على مهل وقرّب وجهه من أذني، وهمس:

- الموضوع لا يمكن الحديث فيه هنا!

- أترغب في أن نصعدَ إلى غرفتي لنتحدّث؟

همس لي ثانية:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، لا، يجب أن أراك خارج المنزل.
- كما تشاء، متى تريد؟
- اليوم مساءً، في المكان نفسه، وسأدعوك إلى كأس ونتحدّث.
- أيّ ساعة؟
- الثامنة، الثامنة والنصف. أنهي عملي وآتيك على الفور.

هززت رأسي ثانية ومضيت...

كانت الشوارع التي عبرتها شبه خاوية. لم يبدأ الناس بالخروج من بيوتهم بعد كي يهيموا على وجوههم من جديد. جذبني محلّ يبيع الفول والفتّة والحمّص المخفوق، وكنت أرتاده على نحو دائم، فتوجّهت إليه من دون إرادة، فقط لإحساسي بأنّ معدتي فارغة من البارحة، وفي تلك اللحظة شعرت بجوع كبير.

Telegram:@mbooks90

ألقيت التحيّة. صاحب المحلّ لم يكلّف نفسه عناء الردّ... لم يردّ، ولم أستغرب، فقد اعتدت هذه الطريقة في المعاملة من قبل الكثيرين، لذلك لم أنزعج.

لكن، ما كان يزعجني لحظتها هو حلمي الذي طحنني عندما كنت في بيت الأستاذ عادل. كيف سهوت عن الأطباق التي كانت موضوعة على الطاولة آنذاك؟! لماذا لم ألقِ نظرة، ولو سريعة، إلى الأطعمة التي دعتني إليها الأسرة اللطيفة؟ تحسّرت على عدم نباهتي ودقّتي. وجدت صحناً من الفول متربّعاً أمامي، فبدأت أزدرده من دون شهيّة... تذكّرت فجأة لقائي بأبي سماح، هذا الرجل المكلوم الحزين، ورحت أقلّب تخميناتي عن الموضوع الذي يريد أن يحكيه لي، فوصلت إلى أقوى الاحتمالات بأنّه قد أحسّ بالندم من حديثه عن امرأته المسكينة الصلعاء، وكيف شرح لي مستمتعاً بطريقة تعامله معها، إذ يبدو أنّه أحسّ بالندم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكي يكفّر عن ذنبه قرّر أن يفاتحني في الموضوع ثانية، ويلقي بالتهمة على الخمرة التي تجرّعها من دون وعي منه...

بدأت أفكّر لأستحضر كلمات مواسية تخفّف عنه ندمه وحزنه، حتّى إنّني فكّرت في أن أكذب عليه لأريحه بقولي إنّني لم أعد أتذكّر أيّ حرف ممّا قاله، وأقنعه أنّني أنا أيضاً كنت ثملاً مثله.

ارتحت للحلّ الذي توصّلت إليه. دفعت ثمن صحن الفول ومضيت.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إذا لم تصنع البساط من خيوطٍ متينة وجيّدة فإنّ القطعة الملوّنة ستبدو لك في ظاهرها أنّها جميلة. لكن في الحقيقة، إنّ الخيوط مهترئة وتتأثّر بأقلّ العوامل إن كانت خارجيّة أم من داخل البساط.

تخيّل يا بني أنّ الأصواف والأقطان التي تستعملها قد غزاها العفن والعثّ! سيتمزّق البساط ويبلى سريعاً، وتصبح ألوانه كاذبة لا نفع منها، ويصبح رميماً.

هذا ما كان معلّمي النسّاج يقوله لي دائماً.

كنت أفهم كلامه المباشر أمّا ما كان يرمي إليه، فقد أدركت معناه بعد زمن طويل، ليس كلّه، بعضه.

ثمّ أردف قائلاً:

- انظر ماذا يجري في البلاد. هل الأديان والطوائف والأحزاب والغرباء هم من فعلوا ذلك؟ نعم قد يكون. لكن صدّقني يا بُني، إذا قلت لك، إنّ البساط كان مهترئاً ويأكله العثّ، والعثّ يأكل نفسه، عندها ستكون السدّة واللّحمة، إحداهما أسوأ من الأخرى، لذلك وصلت هذه البلاد إلى ما وصلت إليه.

مشيت في الطرقات لساعات وساعات، لم أعرف كم من الوقت قد مضى، وأيّ الشوارع والأزقّة طرقت، إلّا أنّ ما نبّهني فجأة هو عطشي القاتل، وبداية غروب الشمس.

المدينة عند الزوال تبدو كئيبة رماديّة. وبعيداً عن ألوانها الكامدة، كان الناس يسيرون الهوينى كأنّهم لا يعرفون ما عليهم أن يفعلوا، فهل يبقون في أماكنهم أو يكملون المسير؟ وإذا ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساروا، فإلى أين سيذهبون؟! كأنَّ أحداً منهم لا يعرف ما يفعل، ولماذا هو هنا في هذا الوقت، فالكلّ يسير في اتّجاهٍ ما على غير هدىً.

كنتَ تقرأ في وجوههم كلّ ما يفكّرون فيه تقريباً، وتشعر بأنَّ مصائب شتّى قد أصابت كلّ واحدٍ منهم على انفراد.

لحظت امرأة تحمل طفلاً وتجرّ الآخر متشبّثاً بردائها، وكان يبكي بصوت مرتفع، ووجهه مغسول بدموعه ومخاطه على حدٍّ سواء. وثمّة رجل آخر يحمل «سَكّاً» رماديّاً فارغاً، يبحث عن شيء ما لا يدري ما هو؟! وهذا شابّ عشرينيّ يتّكئ على جدار، مرتدياً سترة قطنيّة رخيصة رُسمت عليها باللون الأحمر الفاقع شفتان مكتنزتان، وقد كُتب تحت الرسم باللون الأسود «Free Dom»، وبنطال جينز ضيّقاً، وحذاءً رياضيّاً بالياً، وقد قصّ شعره بطريقة لافتة، فبدا من خلال كامل مظهره أنّه لا يدعو إلّا إلى السخرية والشفقة معاً. صحيح أنَّ شكله مرتّب أكثر منّي، لكنّه يثير الحزن.

في الدار التي أسكن فيها مع أُسر عدّة، كانت جميعها قد نزحت من مدنها وقراها، وتركت بيوتها كما هي أو مهدّمة. كان حظّهم كبيراً جداً أنّهم لم يبيتوا مع أطفالهم وأسمالهم في العراء كغيرهم. إذ في المقلب الآخر، ترى عبر شاشات التلفزة خيم النازحين تسبح في الطين، أو ترى النازحين أنفسهم يهيمون في البراري على وجوههم. في البيوت هنا حفاة عراة وجوعى، وهناك في المخيّمات حفاة عراة وجوعى.

إنّهم هم أنفسهم، لكن كلّ قسمٍ منهم في اتّجاه.

وأنت تقف عاجزاً بين السماء والأرض لا تدري ما تفعل. مزّات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدّة كنت أجد نفسي جاهزاً للانطلاق بثقلي الدهني وكرشي المتهدل، أركض وأصرخ، أركض وأصرخ إلى أن أفقد وعيي من شدّة الحزن والألم. إلّا أنّني لن أكتفي بالصراخ فقط بل كانت رغبتي القاتلة في أن أركض، وأرغي وأزبد، وأصرخ بملء صوتي حتّى تخرج أحشائي من حلقي!!

ذهبت إلى النسّاج، وكانت روحي مدمّاة، وقلبي يخفق بشدّة.

نظر إلي دَهِشاً، وقال:

- ما بك يا مبروك؟

قلت له وأنا أشخر وألهث من دون توقُّف، وقد أصبح جسمي مبلّلاً من كثرة التعرُّق:

- قل لي، ماذا يجري في البلاد؟

قال مستغرباً:

- كما ترى، إنّها الحرب.

فقلت له نافياً، وأنا أستجمع قلبي:

- لا...

- ماذا إذاً، هذا ما يجري؟

قلت، تكاد عروق عينيّ تنفجر من شدّة الألم:

- لم يعد يعنيني من يمتلك الحقّ، هؤلاء أم أولئك، جلّ ما يعنيني الآن هو أنّ كلّ شيء تقريباً قد دُمّر، حجراً وبشراً، أجساداً وأرواحاً... لقد نجحنا جميعاً في حرقنا، وقتلنا، وتدميرنا. كلّ طرف منّا أحضر من يفزّع لأجله، ليدافع عن حقّه الذي لا غبار عليه.

طبعاً الحقّ حقّ، وللحقّ وجوهٌ عدّة، هذا ما قرأته مرّة. لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آمنت أخيراً أن ليس هناك إلّا العدم، فلقد آمن الجميع بالعدم... ونجحنا في الوصول إليه... لم يعد هناك قيمة للإنسان إلّا بالكتب والشعارات، فالشعب يقرّر مصيره، دائماً، أما كانوا يردّدون لنا هذا!! لقد اتّخذنا القرار من أجل هذا المصير، مصيرنا هو الفجيعة، إنّنا نأكلنا بلا رحمة، إنّنا نأكلنا.

انتبهت إلى نفسي فأردت أن أتحدّث لكن لم يعد يخرج من فمي كلام، لقد كانت أصواتاً بهيميّة تلك التي تخرج من حلقي. كنت أنبح، نعم كنت أنبح، وانفجرت باكياً... وغادرت.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٦ -

متردّداً قرّرت أن أزور الأستاذ عادل، لا لشيء إلّا لأتأكّد: هل مازال يحترمني، هل مازال يحبّني، هل مازال يرغب في رؤيتي؟ هل لا يزال يريد أن نتبادل الكلام عن الكتب والأفكار؟

وصلت إلى البناء الذي كنت أعمل فيه حارساً، ودخلت البهو. ضغطت على زرّ المصعد فأضاء علامة النزول. فتحت الباب لأدخل الغرفة المعدنيّة الصغيرة، وإذ بي أنقذفُ مبتعداً بكلّ لحومي وشحومي وعظامي أمتاراً عدّة. لم أستوعب ما جرى، وجاهدت كي أتوازن قبل أن أتدحرج على الأرض الصلبة، وإذ بي أرى رجلين بطولٍ فارع متساوٍ، كأنّهما توءمان ضخمان، بعضلات مفتولة، يحدقانني من خلف نظّارتيهما السوداوين بلون ثيابهما.

ما كاد الرعب يدبُّ في نفسي إلّا وقد برز من بينهما السيّد الموظّف الصّلف وهو يقترب منّي ببطء شديد، ما زاد من رعبي أكثر فأكثر.

وقف ملاصقاً لي، وقرّب وجهه من وجهي حتّى كاد أنفه يلامس أنفي. رفع حاجبيه إلى أقصى مدى ممكن، بحيث كادا يختفيان تحت غرّته الكثّة المتدلّية على جبينه كتيس برّيّ... وشخر في وجهي.

- ماذا تفعل هنا؟!

أرتج عليّ، ولم أعد أعرف بمَ أجيب.

أعاد السؤال ثانية بإيقاعٍ أبطأ:

- ماذا... تفعل... هنا، ألم تترك العمل عندنا؟!

أجبته وأنا أتلعثم كمجرم قُبض عليه لحظة ارتكابه جريمته:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا... أريد... الأستاذ، أريد أن أرى الأستاذ عادل.

فأكمل استجوابي:

- ومن يكون الأستاذ عادل هذا؟ وماذا تريد منه، وفي أيّ طابق يسكن؟...

قذف في وجهي وابلاً من الأسئلة ممزوجة برذاذ بصاقه، وصوت أنفاسه.

- إنّه في الطابق الخامس. قلت له بعد أن استجمعت بعضاً من شجاعتي.

- وماذا يريد منك؟

- لا أدري، بل أدري، لقد طلب إليّ أن آتيه كلّ مدّة لأبدّل له أسطوانة الغاز، أو ربّما يطلب إليّ شيئاً يحتاج إليه.

لقد اخترعت هذه الكذبة من شدّة فزعي.

صمتَ طويلاً معبّراً عن حنق لم أجد له مسوّغاً، لكن أحسست بأنّه لم يرتوِ من استجوابي، فأراد أن يصدر قرار العقوبة على الفور.

- اصعد الدّرج واذهب إلى أستاذك.

هرولت مستغرباً مثل هذا التصرُّف، فتذكّرت على الفور أنّ هذا الضبع موظّف متنفّذ وذو حظوة لدى أناس يجلسون وراء مكاتبهم في أماكن عالية. ويبدو أنّه قد خطا خطوات إضافيّة نحو طموحه، فلم يعد هو من يحمل أكياس الطعام والمنظّفات.

صعدت الدّرج إلى الطابق الخامس بكلّ ما لديّ من دهون وشحوم. تمهّلت قليلاً قبل أن أقرع جرس الباب لأستعيد بعضاً من هدوء أنفاسي، وأخفّف من لهاثي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرّبت أذني من باب المنزل لعلّي أسمع حركة في الداخل. خجلت من فعلتي، وقرعت الجرس، مرّة، مرّتين، ثلاثاً، ولا مجيب.

شعرت بالقلق. بدأت أطرق بكفّي السميكة على خشب الباب، ولا أحد. طرقت بقوّة أكبر، ما جعل باب المنزل المقابل يُفتح وتطلّ منه سيّدة عجوز مهيبة. التفتُّ إليها وإحساس بالخجل يغمرني. نظرت إليّ قائلة:

- يا بني، لم يعد من أحد هنا.

بان على وجهي سؤال واستفسار، فأكملت:

- لقد هاجروا إلى كندا.

لم أفهم بادئ الأمر، فكلّ ما قلته لها:

- لماذا؟!

قلبث راحتَي كفّيها إلى الأعلى، وتمتمت:

- لا أعرف؟ لكنّه ترك لك هذه الرسالة.

سحبت الرسالة من يدها بطريقة أقلّ ما يقال عنها إنّها فظّة وتفتقر إلى الكياسة. فتحتها بيدين مرتجفتين وبدأت أقرأ حروفها من خلال طبقةٍ من الماء كانت قد شكّلت غشاوة رقيقة في عينيّ.

«أخي مبروك...»

هكذا بدأت الرسالة، لم أصدّق ما أقرأ. الأستاذ عادل السعيد يناديني: أخي مبروك...

حينها، دون أن أعرف لماذا، أخذ بطني يترجرج بسبب موجة بكاء كادت تجتاحني، إلّا أنّني ضبطت انفعالاتي لأكمل قراءة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرسالة بعد أن مسحت بظاهر كفّي السميكة عينيّ المحمرّتين، وأكملت القراءة «لقد تعلّمت منك الكثير، فلا تستغرب كلامي هذا، فهي الحقيقة، إذ إنّي أحسدك على ما لديك، فأنت لا تزال قادراً على الدّهشة يا صديقي».

لم أفهم ما يرمي إليه، إلّا أنّني أحسست بكلامه هذا أنّه يمتدحني.

«لم أجد أحداً أشكو إليه غيرك...

ما كان يدفعني إلى الموت اليوميّ البطيء أنّه عندما أدخل أرقى وأقدس مكان للعلم والمعرفة، حرم الجامعة - بيتي الثاني - حيث أؤمن بأنّه يرفع أمماً ويُسقط أخرى، قد تحوّل إلى خراب.

منذ لحظة دخولي، كان لزاماً عليّ كلّ يوم أن أخضع لرجل أمّيّ شرس، يبعثر أوراق حقيبتي، ويعبث بمحتوياتها من دون حياء. والذريعة حرصه على أمني وسلامة الوطن والناس! وإذ ما تصادف وأظهرت له بعض الاعتراض أو شيئاً من الاستياء، فعليّ أن أكون جاهزاً لتلقّي بعض الإهانة، ناهيك عمّا يحصل في الأروقة والقاعات والمكاتب والدهاليز، وحياة الناس.

Telegram:@mbooks90

أخي مبروك...

لن أغيّر من قناعاتي، فالأمم لا ترتقي إلّا بالعلم والمعارف، وهذا للأسف الشديد لم يعد يؤخذ في الحسبان. لذلك قرّرت أن أغادر وأسرتي إلى مكان لا أريد له أن يعنيني في شيء، ربّما سأندم على ما أقدمت عليه، لكنّ روحي لم تعد تحتمل، لقد هُزمت، وأنا الآن قد رفعت الراية مستسلماً. يبدو أنّني لا أمتلك قوتك، فأنا عشت معظم حياتي بلا أمان، ولا أريد أن أقضي ما تبقّى من عمري من دون كرامة، فلم أعد أطيق النظر إلى باطلهم. كن بخير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدر ما تستطيع».

عادل السعيد

نزلت الدرج من فوري وأنا أتخبّط بفخذيّ المترهّلتين، وبطني يهتزُّ إلى أعلى وأسفل اهتزازاً هائلاً، معتقداً بأنّني سألحق بهم وأمنعهم من المغادرة، من السفر، من الهجرة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٧ -

الساعة الثامنة مساءً بالضبط. كنت في المكان الذي اتّفقت مع أبي سماح على اللقاء فيه. جلست إلى الطاولة الخشبيّة المحشورة في زاوية المحلّ الضيّق، الذي لا يتّسع لأكثر من ثلاث طاولات مهترئة ومخلّعة. طلبت بعض العرق وصحناً من الخيار وآخر من الفستق المملّح، وكنت مكتئباً وحزيناً لفقداني الأستاذ عادل. بل كنت غير مصدّق.

صببت كأساً لأشربها تمضية للوقت، ريثما يأتي جاري، وكنت قد جهّزت نفسي لأجوبةٍ شافيةٍ بشأن زوجته الصلعاء المسكينة. أخرجت من جيبي الرسالة وقرأتها ثانية. لم أصدّق أنّني لن أرى الأستاذ عادل مرّة أخرى.

مرّ وقت أحسست بأنّه قد طال، والتفتّ إلى أحد الجالسين إلى طاولةٍ في جواري مع اثنين آخرين، وهمست في اتّجاههم:

- لطفاً، كم الساعة الآن؟

حاول أحدهم أن يكتشف الوقت من ساعته فقرّبها من عينيه بسبب الضوء الشحيح في المكان، وقبل أن يجيبني دخل أبو سماح وهو يرفع صوته على مسامع الجميع معتذراً عن التأخير، ما أعفى الرجل من البحث عن عقارب الساعة التي لم يستطع أن يميّزها، وعاد الثلاثة إلى عالمهم وأحاديثهم.

جلس أبو سماح وكرّر اعتذاره:

- كرمى لله لا تؤاخذني!!

هدّأته وأنا أصبّ له كأساً مع قطعتين من الثلج.

- بسيطة يا رجل، في صحّتك...

٢٧٠٥٣٨٩٠٨٢
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفعنا كأسينا وطرقناهما ببعضهما باسم المحبّة والمودّة. دلق نصف الكأس في جوفه دفعة واحدة، فعلّقت ممازحاً:

- يبدو أنّك عطشان جدّاً؟

أشعل لفافة تبغ وسحب نفساً عميقاً طويلاً، ونفث الدخان من فمه كقطار يعمل على الفحم، وهو يصدر آهةً طويلةً بدت لي كصوت صفيرٍ لهذا القطار، لكن كان الصوت أكثر خشونة.

- آه يا سيّد مبروك، لا أدري ماذا أفعل؟! هناك طواحين تدور في رأسي وصدري... تكاد تقتلني!!

وبما أنّني قد أعددت نفسي لما سوف أقوله، فما كان منّي إلّا أن أخذت موقع الحكيم الواعظ، علّني أخفّف قليلاً عنه.

- ما بك يا أبا سماح، شغلت فكري، ماذا جرى لك؟ قل ولا تحصر ما في داخلك، وكن واثقاً بأنّ لكلّ مشكلةٍ حلّاً.

لقد دَبّت الشهامة والشجاعة في بدني وروحي، وكنت مستعدّاً لأن أقدّم له كلّ ما أستطيع كي أزيح عن كاهله هذه الغُمّة.

نظر إليّ بعينين كسيرتين، وصمت لحظات طويلة، ثمّ بدأ بالحديث متلعثماً:

- الحقيقة، لا أدري ما أقول، إلّا أنّني أحسّ بأنّنا صديقان، أليس كذلك؟

أكّدت له قوله، ووافقته بلا أدنى شكّ على أنّ ما يقوله صحيح مليون في المئة.

- طبعاً فصداقتنا قويّة ومتينة، وأنا أعتزّ بها!

تشجّع لمبادلتي المشاعر، وحدّق إليّ، ونفث الدخان كثيفاً مرّة أخرى، لكن هذه المرّة في منتصف وجهي، واقترب هامساً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا خائف عليك!

فانتفضت مستغرباً:

- عليّ؟!

- نعم يا مبروك، إنّني خائف على حياتك ومستقبلك، والطريقة التي تعيش بها. أنت لا تأكل جيّداً يا رجل، ولا تستطيع تنظيف ثيابك وغرفتك، ومكان نومك غير لائق، وكلّ شيء لديك يحتاج إلى ترتيب وتنظيف...

وافقته متأثّراً بكلامه.

- معك حقّ يا أخي، عندما تظلمنا الدنيا، لن نتوانى عن أن نظلم أنفسنا أيضاً.

فاشرأبّ برقبته مؤنّباً إيّاي:

- لكن هذا لا يجوز. عليك أن ترحم نفسك. أنت رجل طيّب وشهم ولا ينقصك أيّ شيء، فلماذا إذاً كلّ هذا الإهمال... لا يجوز...

وافقته من صميم قلبي، وشعرت ببعض الحزن على حالي.

- هذي حياتي ولا أعرف كيف أحسّن وضعي ولو مليمتراً واحداً!!

فقال بهدوء وهو مطرق برأسه:

- اسمع يا بن الحلال. أنا أيضاً أعيش في دوّامة تطحن روحي يوميّاً، ولا أعرف كيف أحسّن وضع أسرتي كذلك. هربنا من بيوتنا بسبب الحرب والخراب، وأصبحنا على ما نحن عليه الآن. نعم، كنّا فقراء، لكن كنّا مستورين، كما يقال. لقد فكّرت في حلٍّ قد يساعدنا نحن الاثنين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأردف:

- أعتقد أنّه سيساعدنا!

سألته مستفسراً بفضول:

- كيف؟

فأجاب منكسراً:

- أنا لا أستطيع أن أوفّر الكفاف لأسرتي، لذلك...

صمت، فنظرت إليه أنْ أكمل، فأكمل خَجِلاً:

- كما قلت لك، أنت رجل طيّب ولا ينقصك شيء، لذلك فكّرت في أنّك لو تتزوّج ابنتي!!

لم أفهم، لم أفهم، لم أفهم. كلّ ما أحسست به أنّني لا أفهم. فقلت دَهِشاً:

- مَن؟!

- سماح... ابنتي...

أحسست أنّ أفكاري قد تشظّت، وصدرت عنها آلاف التساؤلات التي لا أجوبة لها. لقد أصبح عقلي مخنوقاً بالطلاسم والغبار!

وبرعبٍ ودهشة، سألت:

- سماح؟!!

فهزّ رأسه إيجاباً.

- لكنّها طفلة صغيرة يا رجل!!

- الإناث يكبرن سريعاً، صدّقني.

قال كلامه بثقةٍ وإصرار.

لم أعرف بمَ أجيبه، لكن كلّ شيء فيّ كان يرفض الفكرة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أساسها. أهذه الطفلة النحيلة المسكينة؟! تخيّلت أنّني أمسك بكفّها الصغيرة وأنا ذاهب لأشتري لها بعض السكاكر والحلوى والألعاب!! وكم ستكون خائفة من جثّتي وترهّلي عندما تكون بين ذراعيّ كعصفورة مرعوبة ومرتعشة. لقد تزلزلت مخيّلتي!!

رفضت الفكرة جملة وتفصيلاً. اتّجهت إلى أبي سماح بسؤالي بطريقة لا تنقصها العدائيّة:

- كم عمرك يا أبا سماح؟

فقال مستغرباً:

- أنا... سبعة وخمسون عاماً.

فقلت مسرعاً:

- إنّني أصغرك ببضع سنوات فقط يا رجل، أي نحن الاثنان من عمرٍ واحد تقريباً، وابنتك لا يزيد عمرها عن ستّة عشر عاما؟!

فصحّح لي:

- وثمانية أشهر!

فقلت منتفضاً:

- حتّى لو كانت ثماني سنين، فهذا لا يغيّر في شيء. إنّني في مثل عمرك يا رجل، عمرِ أبيها!!

فأطلق الجملة الشهيرة التي تقال في كلّ زاوية من زوايا مجتمعاتنا:

- الرجل لا يعيبه شيء.

فزجرته:

إنّني أكبرها بأكثر من ثلاثين سنةً يا رجل؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأعاد الجملة مرّة ثانية:

- الرّجل لا يعيبه شيء!

فصرخت بأعلى صوتي:

- أنا لست رجلاً!! من قال لك إنّني رجل، أنا لست رجلاً...

علا صوتي إلى الحدّ الذي جعل كلّ من في المكان، على الرغم من قلّتهم، يلتفتون إليّ دَهشين، أمّا صاحب الحانة فقد برز أمامنا فجأة، معتقداً أنّ شجاراً كبيراً يحدث بين هذين الاثنين، فقد اعتاد شجارات السكارى، وتحطيم الكؤوس والصحون والكراسي. فما كان منه إلّا أن رفع صوته وسبّابته محذّراً:

- أيّ شيء تحطّمونه ستدفعون ضعف ثمنه، وبعد أن تدفعوا لي ثمن أضراري، ستكونون بين يدَي الشرطة.

وقف أبو سماح وقال مهدّئاً الرجل:

- لا، لا، لن يحصل شيء من هذا، إنّه سوء تفاهم لا أكثر.

وقف ووضع يده على كتف صاحب الحانة وابتعد به خطوات وهو يحادثه بصوت خفيض، بينما كنت أحمل رأسي براحتَي كفّيّ وأنا مطرق، لا أدري لماذا حضرت إلى هذه الجلسة الشيطانيّة. مرّ زمن لم أدرك زمنه.

التفتّ، فرأيت أبا سماح قد غادر. اختفى في العتمة...

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٨ -

كنت كلّما صادفت أبا سماح وأنا أدخل البيت أو في أثناء خروجي منه، ألقي عليه تحية مقتضبة، فيردّ على تحيّتي الباردة بتحيّة تفيض عتباً.

أوقفني مرّة لحظة صعودي درج الغرفة، وهمس لي بتمنٍّ:

- أرجو أن يبقى ذاك الحديث بيننا... كرمى لله.

هززت رأسي موافقاً ومضيت.

كنت لا أعود إلى البيت إلّا بعد وقت متأخّر من الليل كي لا أصادف أحداً، لا أبا سماح، ولا سماح.

وبعد مرور بضعة أسابيع، وبينما كنت أتمدّد على فراشي صباحاً قبل أن أغادر، سمعت بضع نقرات على الباب، فنهضت متعجّلاً. فتحت دفّته التي تصدر صريراً مزعجاً، وإذ بأبي سماح يقف قبالتي مبتسماً، وفي يده طبق كرتون مقوّى صغير قدّمه لي:

سألت بحياد: ما هذا؟

- هريسة «نمورة»، تحلية بمناسبة زواج سماح. العقبى عندك.

فقلت مستغرباً:

- مبارك إن شاء الله. لمَن زوّجتها؟

فابتسم كاشفاً عن أسنان متآكلة مسودّة ومهترئة:

- لبرهان!!

قال، ومضى. التفت ثانية إليّ بعينين دامعتين، وأكمل:

- في الأقلّ يستطيع أن يطعمها!

احترت لأمر هذا الرجل، فلقد زوّجها برهاناً أجير الفرّان الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عرّفت أحدهما إلى الآخر بطريق المصادفة، وهو يصغرني بسنتين أو ثلاث في الأكثر. لكن، أهمّ ما كان يميّز هذا الـ«برهان» أنّه لم يكن يعرف القراءة والكتابة.

بشعورٍ سحريّ لا يمكن فهمه ذاب في داخلي كلّ إحساس باللوم والعتب على هذا الأب البائس، ورأيت أنّ ما فعله قد يكون هو الصواب. إلّا أنّ ما كان يجري حولي لم يكن أفضل من هذا الذي فعله أبو سماح بابنته. يبدو أنّ على المرء أن يعرف متى يستسلم!!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١٩ -

لمَّا كنت ألتقط بإصبعي بعض ذرّات الملح لأرشّها فوق البيض المقلي أو الطعام، كنت أتذكّر ذاك الفتى المسكين الذي كانوا يلقبونه في الحيّ بـ«ملح»، لا أحد يعرف لم؟

ذات غروب، وأنا عائد إلى غرفتي كانت المدينة بأكملها كأنّها قد طُليت بطبقة رقيقة من ماء الذهب.

يا لهذه المدينة، عجيب أمرها!!

عندما تسمع أجراس الكنيسة تُقرع وأنت تسير في أيّ شارع من شوارعها، لن يتطلّب منك الأمر إلّا التفاتة صغيرة نحو اليمين أو اليسار لتجد على بعد بضعة أمتار مئذنة بهيّة لجامع قريب.

لقد فسّره الجميع بأنّه أوضح صورة للتعايش والتسامح بين هؤلاء الإخوة الذين ينتمي كلّ واحدٍ منهم إلى دينه مع النظر إلى الآخر بعينٍ كلّها محبّة وصفاء سريرة، واقتنع الجميع بأنّ هذه المشاعر النورانيّة المتسامحة هي في صلب أرواح أهل هذه المدينة الساحرة.

لكن، ما يجعلك تتحوّل بكليتك إلى إشارة متعجّبة أنّه بكلّ حبّ ولطاف لا يشتري هؤلاء من دكاكين أولئك؟!

لا بأس، المهمّ بلا ضغينة!!

ويحاول أولئك ألّا يكون أولادهم في مدارس أولاد هؤلاء!! ولا مانع، فقد تفرض الخصوصيّة هذا الشيء، المهمّ بلا حقد! ومعظم هؤلاء لا يتمنّون أن يبنوا علاقات أسريّة مع أولئك؟! وهذا شيء بسيط، المهمّ أنّ المودّة قائمة بين الجميع.

حينها، حزنت على «إيليا» اليهوديّ، الذي ترك هذه النعمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وغادر مكرهاً. تذكّرت، وقلت في نفسي: «الحقّ معه أن يبكي ويبكي قبل أن يغادر ويترك هذا الفردوس، نعم إنّنا نعيش في الفردوس!»

«ملح» هو اسم شابّ في أواخر العشرينات من عمره، ليس عاقلاً ولا مجنوناً، ليس ذكياً ولا غبياً، ليس طيباً ولا خبيثاً. جميع أهل الحيّ لا يعرفون إلى من ينتمي، إلى هؤلاء أم إلى أولئك؟! مرّة تراه يبيت في الكنيسة، وأخرى تراه يبيت في المسجد. الذين هنا يشفقون عليه، والذين هناك أيضاً... لم يسأله أحد عن دينه أو انتمائه. كان هؤلاء يعدّونه منهم، وأولئك يعدّونه منهم أيضاً. يدخل الجامع بيسر وبساطة، كما أنّه يدخل الكنيسة بالطريقة نفسها. وعندما يكون بين هؤلاء، ويكونون في حديث ما، يكون جالساً بينهم دون أن يأخذه أحد بعين النظر، كما أنّه عندما يكون جالساً بين أولئك الآخرين، ويتداولون الأحاديث، يجري الأمر بالطريقة عينها من دون أن يؤخذ وجوده في الحسبان. ولمَ لا، إنّه «ملح» ولا أحد يعرف له اسماً آخر. كلّ الأطراف عدّته، من دون اتفاق مسبق، أنّه من نعِم الله وبركاته.

لا أحد يعرف كيف يفكّر أمثال هؤلاء الذين يشبهون «ملح» فالكلّ مقتنع بأنّ أمثاله لا يفكّرون إلّا في حدود طعامهم ونومهم فقط. فإذا ما آلمه شيء ما في جسمه، أو أحسّ ببعض الوهن أو المرض، فإنّ الشيء الوحيد الذي يفعله هو البكاء بصوت خافت يكاد لا يُسمع، إلى أن ينتبه إليه أحد ما من هؤلاء أو من أولئك، فيساعده.

وأنا في طريقي إلى البيت، سمعت هرجاً وصياحاً، بان من بعيد أنّ حدثاً غير مألوف يجري. أسرعت الخطى باتّجاه الحشد، وميّزت أشياء كالعصيّ الطويلة التي تشبه الرماح. اقتربت أكثر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فبانت بعض المطارق والقطع المعدنيّة الحادّة، وكثيرٌ من الأشياء التي لم أميّز ماهيتها، كانت محمولة بالأيدي.

وصلت إلى الجمع الذي كان قد انقسم إلى قسمين شبه متساويين، وكلّ قسم يهدر بأصواته ويهدّد القسم المواجه له.

في أحد الطرفين، كان يقف في المنتصف شيخ وقور ذو لحية بيضاء طويلة وعمامة على رأسه، أمّا مَن في الطرف المواجه فكان يتوسّطهم قسّ يرتدي عباءته السوداء المطرّزة وقد وضع على رأسه قبّعة سوداء مرتفعة قليلاً، وبان الشيب على لحيته المهيبة.

أصغيت طويلاً... لم أفهم سبب الخلاف، فرأيت رجلاً هرماً يقف متنحّياً بضع خطوات عن الحشد، فاقتربت منه مستفهماً:

- لماذا يتجادلون؟ سألت.

- إنّهم لا يتجادلون، إنّهم سيتذابحون!! قال ببرود ودون اهتمام!!

فقلت له متعجّلاً:

- يا لطيف، وما هو السبب؟!

نظر إليّ، ولفافة تبغه قد تدلّت من زاوية فمه المترهّل، وقال:

- هل تعرف «ملح»؟ أجبته: نعم.

- لقد قام هذا الأهبل بفعلة قد تؤدّي إلى كارثة لا تُحمد عقباها!!

- وماذا فعل؟

- لقد دخل الكنيسة وأخذ خلسة الكثير من الأناجيل الموجودة فيها، وتعدّ بالعشرات، ووضعها في الجامع، وأحضر بدلاً عنها ما استطاع من نسخ القرآن ووضعها في الكنيسة، دون أن ينتبه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليه أحد. وفي صباح اليوم - لا يزال الرجل الهرم يشرح لي - بدأ المؤمنون من هنا وهناك يتداولون كتبهم المقدّسة، فانكشفت المسألة، وطار صواب كلٍّ من القسّ والشيخ، واختلط الحابل بالنابل، فدلّهم أحد أصحاب الدكاكين قائلاً إنّه قد رأى «ملح» يخرج من الكنيسة حاملاً ما لا يعرف ما هو داخل ثيابه ويركض في اتّجاه الجامع، ثمّ رآه يعود بالسرعة نفسها وهو يحمل شيئاً ما في اتّجاه الكنيسة. كان يخرج راكضاً، ويدخل راكضاً. لكنّه لم يُقم أيّ وزن لما يفعله «ملح» فالجميع قد تعوّد أفعاله التي لا تخرج من عاقل متّزن. إلى أن بزغ الفجر وانكشفت الفعلة، فاشتبك المؤمنون الغيورون من هؤلاء، مع المؤمنين الغيورين من أولئك، وكلّ طرف يتّهم الآخر بأنّه هو من دفع بـ«ملح» للقيام بهذه الفعلة ليسمّم عقول مؤمنيه، وكادت تنشب معركة قد يعلم المرء كيف ستبدأ لكنّه لن يعرف كيف ستنتهي. إلّا أنّ المحبّة والعفو عند المقدرة هما مَا حسم الأمر، فهدأت النفوس قليلاً، وعاد الوئام إلى الجميع، لكن بقوا لا يشترون من دكاكين بعضهم، ويجنّبون أولادهم الجلوس على مقاعد الدرس نفسها، ولا يتزاورون ما بين أسرهم إلّا قليلاً.

صرخ أحدهم:

- أين «ملح» الحقير؟

وردَّ آخر:

- أين هذا الكلب؟

لكن، يبدو أنّ «ملح» أصبح «فص ملح وذاب». بعد مدّة، وُجد مقتولاً ومرمياً فوق كومة من القمامة. كان يجب أن يُقتَل في هذه المدينة الفاصلة، التي كنّا نتوهّم أنّها فاضلة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٠ -

مددت يدي بحذر إلى جيب بنطالي الواسع فتلمّست بضع أوراق نقديّة، عددتها، كانت كافية لجلوسي مستمراً في مكان ما أحتسي بعض الشراب.

هربت إلى حانةٍ منزوية في شارع ضيّق عتيق، وطلبت زجاجة نبيذ محلّي الصنع. صاحب الحانة أحضرها بنفسه وجلب معها صحنين صغيرين من الألمنيوم الكامد يحوي أحدهما بضع حبّات من الزيتون الأسود، والآخر فيه قليل من الفستق السودانيّ المملّح. فتح الزجاجة ووضعها على الطاولة بشيء من الاعتياد وعدم المبالاة، ثمّ أدار ظهره العريض مبتعداً.

صببت السائل الخمريّ في الكأس، ورشفت رشفة كانت خانقة من رداءة النوع، تعاملت مع الأمر على نحو عاديّ ومألوف، فالنوع الرديء بخس الثمن، أمّا الجيّد فمرتفعه. أعرف هذا دون عناء. لكن، لا بأس، فبعد بضع رشفات تستوي الأمور ويصبح المذاق الطاحن مقبولاً بل وجيّداً أيضاً.

Telegram:@mbooks90

الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وروّاد المكان في مزاج رائق خدر، وأضفى صوتٌ خافت لأسمهان وهي تغنّي «يا طيور» جواً من السعادة المكبوتة داخل هذا المكان الكئيب.

النبيذ الرديء تحوّل ببطء إلى شراب ممتع فاخر ولذيذ، إلى الحدّ الذي لم تعد فيه رائحته القاسية تفرض نفسها على أنفي وحلقي. وعلى الرغم من العدد القليل للمرتادين، الذين لا يتجاوزون أصابع يد ونصف، إلّا أنّ ضحكة من جالسٍ هنا، ووشوشات أحاديث من هناك، ونكتة يطلقها آخر ثلثها غير مفهوم بسبب فقدانه لمعظم أسنانه... المهمّ، كنت رائق البال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذ بامرأة خمسينيّة متوسطة الطول، ذات وجه بانت عليه بقايا جمال غابر، تلقي التحيّة كزبون دائم، فردَّ عليها صاحب المحلّ مرحّباً باقتضاب:

- أهلاً دموع... تفضّلي.

نظر إليها كلّ الجالسين دون اهتمام وهم يردّون التحيّة. إذ بدا كأنّ الجميع على معرفة بـ«دموع».

نظرت إليّ نظرة عابرة، لكنّها نظرة خبيرة، وصاحت بصاحب الحانة:

- ناولني زجاجة بيرة باردة.

قدّم لها زجاجة بيرة وهو يقول ممازحاً:

- بيرة باردة أم مثلّجة يا ستّ دموع.

- بلا كتر حكي، هاتِها مثلّجة لأطفئ النار اللاهبة في جوفي.

- أمرك.

قالها وهو منشرح.

أخذت الزجاجة وبدأت في إفراغ محتواها في حلقها في شكل دفعات كبيرة... وعاد الجميع إلى بعضهم بعضاً لإكمال ثرثراتهم وأحاديثهم التي لا طائل منها، كما عدت أنا أيضاً إلى نفسي.

نظرت إليّ وصاحت على نحو مسموع:

- هيه... أنت!!

التفتُّ إليها وأشرت بإصبعي إلى صدري.

- أنا؟!

- نعم أنت... هل تتزوّجني؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقلت مستغرباً:

- أنا أتزوّجك؟!

فردّت بتأكيد:

- نعم، أنت بالذات، هل أنت متزوّج؟

- لا، لست...!

- جيّد، إذاً تزوّجني.

فرفضت على نحو قاطع، لكن بأدب، وأنا أبتسم:

- لا، لن أتزوّجك!!

فقالت بصوت عالٍ:

- لأنّك حمار!

كظمت غيظي مستغرباً، وأردتُ أن أجيبها بطريقةٍ أقلّ ما يُقال عنها إنّها مهذّبة وذكيّة:

- لا، أنا لست حماراً لأتزوّجك.

فأجابتني بلهجة ساخرة:

- إذاً، كن ابن آدم وتزوّجني... سأسعدك.

قلت حاسماً الأمر:

- لن أتزوّجك.

فردّت بعد أن أخذت رشفة كبيرة من زجاجتها:

- أرأيت، أنت والحمار متشابهان. لقد طلبت منك الزواج وأنت حمار فرفضت، ثمّ طلبت منك الزواج كابن آدم ورفضت ثانية، إذاً، أنت والحمار سواء.

لم أعد أعرف بماذا أجيب، لقد أُرتج عليّ، فلذتُ بالصمت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحينها رفعت زجاجتها عالياً وصاحت:

- بصحة كلّ ابن آدم حمار.

وصبّت كلّ ما تبقّى من السائل في حلقها، ومضت.

التفتُّ إلى صاحب الحانة، وكان مشغولاً بشيء ما، ولم يبدِ أيّ ردّ فعل على ما جرى، ما منعني من السؤال والاستفسار عن هذه الـ«دموع».

نظرت إلى الآخرين، وإذ بهم كأنّ شيئاً لم يكن، فأحسست بالطمأنينة والراحة، وفكّرت قليلاً: «لماذا لا أتزوّجها؟! مَن أنا كي أرفض عرضاً كهذا؟ وهل أنا إلّا «دموع» في هيئة رجل.

وقفت بتثاقل واتّجهت إلى عمق الحانة الضيقة، فوصلت إلى حيث صاحب المكان. سألته:

- مَن هذه؟

- دموع!

- أين تقيم؟

- لا أعرف!

- كيف أراها؟

- لا أعرف.

- لكنّك تعرف اسمها.

- وأنت تعرفه كذلك؟!

- هل ستأتي غداً؟

- لا، قد تأتي غيرها!!

- وكيف ذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كلّ يوم تأتي إحداهنّ أو أكثر، والكلّ أناديهنّ باسم «دموع».

- إذاً، هذا ليس اسمها!!

- أنا أطلق عليهنّ جميعاً الاسم نفسه من دون أن أعرف أسماءهنّ الحقيقيّة.

دارت الخمرة في رأسي أضعافاً مضاعفة إلى درجة أن ظننت أنّني أعيش كابوساً غريباً لا نهاية له.

دفعت كلّ ما في جيبي وخرجت لا ألوي على شيء وأنا أفتّش عن دموع التي اختفت كأنّها لم تكن. إلى متى سأظلّ أهدر الفرص في حياتي!! «دموع» كانت تقف أمامي على بعد خطوات وتعرض عليّ الزواج. صحيح أنّها ليست فتيّة كفاية، لكنّها مكتنزة ونابضة بالحياة، وشهيّة...

سأكتب عنها يوماً، عندما أتمكّن من الكتابة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢١ -

- أنا يا معلّمي ما استطعت أن أركن أو أستقرّ في أيّ عمل، انصحني ماذا أفعل؟

هذا ما قلته متوسّلاً في مشغل النول، بعد أن فقدت القدرة كلياً عن إيجاد الوصفة الشافية كي أستمرّ في عملٍ ما!!

- يا مبروك، يا بني، عليك أنت أن تجدَ حلّاً لمشكلتك، ولا أحد غيرك!!

- أنا لا أطلب حلّاً يا معلّم، لكن أريد منك نصيحة ما تنقذني وتهدّئ من بلواي!

- مفهوم، مفهوم. أجابني معلّم النول بهدوء وسكينة، وأردف:

- لكلّ مشكلة حلّ، لا تقلق، تعالَ إليّ بعد ثلاثة أيّام.

أنهيت شرب كأس الشاي بدفعات سريعة، لكأنّني أريد أن أستعجل الأيّام والساعات، ومضيت.

مشيت في الطرقات على غير هدىً كعادتي، وكانت قدماي تقودانني إلى حارات وأزقّة وشوارع، في طول المدينة وعرضها. من يرَني يعتقد أنّني أسير ذاهباً لعمل شيء محدّد ومعلوم، فقد كانت خطواتي قصيرة ومتعجّلة، ولا تردّد فيها. مشيت لساعات من دون أن أنتبه، إلى أن وجدتني ألهث كثورٍ هرم قد لاحقته قطعان ذئاب.

رأيت عند زاوية أحد الأزقّة حجراً مكعّباً مصقولاً قد غُرز أمام أحد أبواب البيوت القديمة، فما رأيت نفسي إلّا جالساً عليه وثيابي مبلّلة بعرقي، وأنا أتنفّس بصعوبة. أسندت ظهري إلى حائطٍ خشنٍ وأخذت شهيقاً عميقاً أستردّ من خلاله بعضاً من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوايَ الخائرة. كانت برودة الزقاق منعشة، وهبَّت نسمات خفيفة باردة أعادت إليَّ الروح قليلاً، وأنستني حرارة الصيف القاتلة.

تغيَّر مزاجي بسرعة مدهشة، وانفرجت أساريري، وانتظم لهاثي، ما دفعني لأسحب من علبة سجائري لفافة تبغ، فأشعلتها وسحبت إلى جوفي كلّ دخان التبغ المحروق، ثمّ نفثته دفعة واحدة فشعرت براحة كبيرة كأنّني أخذت جرعة مضاعفة من الأكسجين النقيّ. وقفت على غير عجل وأكملت مسيري، لكن بتؤدة.

ذهبت مباشرة إلى الفرن الذي يعمل فيه برهان زوج سماح، ابنة أبي سماح، فقد انتابني بعض الفضول لأسأل عن حاله وزواجه.

ألقيت التحيَّة على عمَّال الفرن، بعضهم أعرفه من خلال عملي هنا سابقاً، والبعض الآخر كنت أراه أوّل مرّة. ردَّ الجميع التحيَّة بترحاب ما أدخل الثقة والسرور في نفسي. تقدَّم منّي برهان واحتضنني بكلتا يديه بحبّ غامر، ولم أنزعج من بقايا الطحين التي تركها على ثيابي...

- أهلاً بالغالي مبروك، اشتقت إليك يا عكروت.

انتبه إلى ذرّات الطحين التي علقت على ثيابي فبدأ ينفضها ويخبط عليّ معتذراً.

- قليلٌ من الوقت وأنتهي، لا تذهب، سنذهب معاً.

قال هذا وعاد إلى عمله مسرعاً، بعد أن طلب من أجيرٍ يافعٍ أن يقدّم لي كأساً من الشاي الخمير الأسود، كانوا يطلقون على شاي كهذا اسم «دم الأرنب» لقتامة لونه وكثافته.

انتحيت جانباً، أشرب الشاي في انتظاره...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضى الوقت سريعاً، فقد كنت مرتاحاً، وإذ ببرهان يطلّ عليّ وقد غيّر ملابسه وغسل وجهه ومشط شعره بدقة متناهية حتّى بانت جلدة رأسه عندما فرق شعره المبلول الذي مازالت بعض قطرات من الماء تتساقط عن سالفيه.

وضع يده على كتفي واليد الأخرى كان يحمل بها بضعة أرغفة طازجة.

- سنتغدّى معاً اليوم.

وأكمل بتفاخر ودود:

- عندي في البيت، ستُسرّ سماح لرؤيتك. هي لا تعرفك جيّداً إلّا من خلال المسكن، لكنّي حكيت لها عنك الشيء الكثير. اشتقت إليك يا عرص.

كان الوقت عصراً. دفع برهان الباب الخارجي للدار بكتفه، فقد أصبحت يداه الاثنتان مشغولتين بحمل الأكياس التي اشترى موادها في أثناء قدومنا، وحمّلني كيساً بلاستيكيّا شفّافاً فيه ثلاث تفاحات وبعض حبّات الخوخ الأسود.

دخلنا دهليزاً طويلاً انفرج آخره عن أرض ديار صغيرة ومرتّبة، وفي زاوية الفناء شجرة ياسمين كبيرة وقد امتلأت بزهورها كنجوم لا حصر لها، وانتشر عدد كبير منها على الأرض، ما أعطى المكان جمالاً فاتناً، مضافاً إلى الرائحة العطرة التي تنتشر على طول المنزل وعرضه بكرم وسخاء.

تحوي الدار غرفاً عدّة، كالدار التي أسكنها، لكن أحسست بالسرور لعدم ازدحام المكان بالسكّان والمقيمين، لكنّ إحساسي هذا تلاشى فجأة عندما انفتح بابان دفعة واحدة، وظهرت عبر أحدهما ثلاثة رؤوس لولدين وأمّهم، وعبر الباب الآخر ظهر رجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرتدي لباساً داخليّاً كان في يوم ما أبيض اللون، وبان وجهٌ صغير لطفلةٍ من بين ركبتيه.

تأكّد الجميع من القادمين ودخلوا غرفتيهم دفعة واحدة، وأغلقوا البابين كأنّهما مربوطان بزرّ كهربائيّ.

نظرت إلى برهان، فقال لي مبتسماً:

- جيراني.

ثمّ أشار بيده إلى غرفة مقابلة لشجرة الياسمين.

- هنا أسكن...

طرق الباب بأدب ونادى بصوت خفيض:

- سماح.

دفع الباب ودخل. وقفت أنا منتظراً الإذن بالدخول. وبعد وهلة اشرأبّ بعنقه مشيراً إليّ كي أدخل.

- تفضّل...

دلفت إلى الغرفة، فوجدت سماح تقف بخجل مبتسمة. لم أعرف ما أقول غير كلمة: «مرحبا». فردّت: «أهلاً وسهلاً عمّي مبروك».

انتبه برهان إلى موجة الحرج التي غطّت المكان، فكسره وهو يبتسم:

- سماح تتذكّرك، وتعزّك جدّاً. لقد قالت لي إنّها كانت تراك مصادفة وأنت داخل أو خارج من الدار.

انتبهت إلى أنّ سماح لم تعد تلك الفتاة النحيلة ذات القفص الصدريّ البارز، والوجنتين الناتئتين، الشاحبة دوماً، بل تحوّلت إلى صبيّة لا تمتلك الحظّ الوافر من الجمال لكنّها أضحت بكامل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نضارتها، وقد اكتمل بدنها، وامتلأت قليلاً، وتكوّرت زواياها، وأضحت لها ابتسامة وديعة جذابة تنمّ عن روح طيّبة.

نظر إليها برهان، وقال لها كلمة واحدة فقط: «حظّيلنا».

ففهمتُ أنّه طلب إليها أن تضع لنا الطعام.

- على الفور... قالت وخرجت.

التفت إليّ بعد أن ذهبتْ، واقترب منّي هامساً:

- إنّ حظّي من السماء. سأحضر بعض الأشياء من المطبخ وأعود.

جلست على طرّاحة مُدّت على الأرض، فواجهني شُبّاك يطلُّ على أرض الدار، وقد أُسدلت ستارة شفّافة صنعت من قماش «دانتيل» رخيص لكنّه أنيق، وقد طُليت الغرفة بلون سماويّ فاتح، وعُلّق على الجدران بعض الصور ذات أُطر بلاستيكيّة، وفي زاوية الغرفة كانت هناك طاولة صغيرة مربّعة وُضع عليها أصيص من الزهور الاصطناعيّة ذات ألوان زاهية برّاقة مع أوراقٍ خضرٍ نضرة لا تذبل...

Telegram:@mbooks90

كلّ شيء حولي مرتّب، كأنّك تحسّ بتلك الروح الهائمة الودود التي جمّلت المكان. حتّى ذلك السرير المركون في عمق الغرفة إلى جانب خزانة ملابس صغيرة ذات طبقة من «الفورميكا» بلونها الخشبيّ الفاتح... كلّ شيء حولي جميل ومرتّب وفقير.

أحسست بالسكينة والأمان، ونسيت أنّني أنتظر صاحبي برهان، إلى أن دفع الباب بكتفه ودخل حاملاً إبريق ماء أخضر وكأسين زجاجيتين ووعاء فيه بعض قطع الثلج.

وقفت سريعاً لأساعده، فأعطاني ما بيده، واتّجه ناحية السرير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرفع غطاءه المزركش بعد أن قرفص، وأخرج من تحته زجاجة عرق مختومة.

حينها دخلت سماح وهي تحمل شيئاً مدّته على الأرض، مدّت قطعةً من النايلون الرقيق الممتلئ بالأزهار، مقابل جلستنا، وخرجت مسرعة. وضعت أنا الكأسين والإبريق والثلج.

جلس برهان إلى جانبي وصبّ العرق بكميّة متساوية في الكأسين ثمّ شنّ العرق بالماء، فتحوّل المزيج إلى سائلٍ سحريّ بلون الغيمة البيضاء، ثمّ وضع في كلّ كأس قطعتين صغيرتين من الثلج... طرقنا الكأسين إحداهما بالأخرى، فأصدرتا رنيناً سحريّاً، وشربنا متمنّيين لأنفسنا الصحّة وراحة البال والسعادة.

لم يمرّ من الوقت الشيء الكثير إلّا وكنّا ثلاثتنا في جلسة عائليّة حميمة، وأمّ كلثوم تصدح بصوتها الشجي، «أروح لمين وقول يا مين ينصفني منك»...

كانت سماح تجلس فوق ساقيها كتلميذة في الكتّاب، فقد كان الأطفال قديماً يتعلّمون «قصار السور» لدى أحد الشيوخ. كانت كلّ حين وحين تأخذ حبّة زيتون فتضعها في فمها على حياء. أنا لم تغادرني صورة أبيها وهو يعرض عليّ أن أتزوجها، فأحسست باضطراب في داخلي، فلم أكن أحسّ نحوها إلّا بمشاعر أب ينظر إلى طفلته الضئيلة وقد تزوّجت رجلاً أهمّ ما فيه أنّه ينظر إليها بحبّ وحنان.

تمنّيت لهما حياة آمنة، وقرّرت المضي. اقتربت منها وسحبتها إليّ وقبّلتُ رأسها.

- أنت ابنتي، قلت لها.

وأكملت ممازحاً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كلّ إنسان لديه أب واحد، أمّا أنت فقد أصبح لديك ثلاثة آباء؟! غامزاً إلى فارق السنّ بينها وبين برهان.

استقبل صاحبي مزحتي الثقيلة بحبّ واسترخاء، إلّا أنّه عقّب على كلامي مازحاً ورادّاً مزحتي بأخرى مقابلة:

- أنا أصغر منك بكثير. انظر إلى شعري، فشعرك ثلثه قد تحوّل إلى البياض، أمّا أنا فلا!!

ضحكنا ثلاثتنا، وهممت بمغادرة الغرفة. سرنا أنا وبرهان في أرض الدار وقد وضع يده كعادته على كتفي دلالة مودّة صادقة، وفي طريقنا نحو الباب الخارجيّ المؤدّي إلى الزقاق، سألني إن كان يلزمني شيء ما، فشكرته.

سألني عمّ أعمل هذه الأيّام، فما كان منّي إلّا أن شرحت له مختصراً حاجتي إلى العمل، وأفهمته أنّني سأستمرّ في أيّ عمل يأتيني، ولن أتركه ثانية.

كنّا قد خرجنا من باب الدار ووقفنا متواجهَين في الزقاق المعتم الذي أتى من عمقه بصيص ضوء صادر عن عمود إنارة شحيح كشمعةٍ قصُر فتيلها.

أمسكني من كتفيّ وهزّني هزّات خفيفة، وقال:

- أعرف شخصاً يعرف آخر يعمل لدى شخصٍ هو صاحب شركات ومعامل، سأحكي له عنك، وأعتقد أنّه لن يردّ لي طلبي بتوظيفك لديه.

- يا ليت. قلت له.

- مرّ صوبي بعد أسبوع، وإن شاء الله خير.

شكرته على ما سيقدّمه لي بعد أن شددت على يديه مصافحاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومضيت.

ما مشيت إلّا أربع خطوات إلّا وكان صوته يناديني.

- مبروك.

التفتّ إليه، فاقترب منّي وهمس في أذني كمن يحمّلني سرّاً مفرحاً.

- سماح حامل.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٢ -

أسير في الطرقات وأنا ممتلئ بالفرح والنشوة لما آلت إليه حال برهان وسماح. كانا ينضحان بالرضا. وأصبحت مقتنعاً أنّه ربّما لخطأين أن يصنعا صواباً!.

مرّت صورتهما مع تلك الغرفة الوديعة، التي يسكنان فيها، في مخيلتي وأنا أسير مطرقاً، وثمّة ابتسامة عريضة وواضحة ترتسم على وجهي.

هو لم يدخل حياتها ليطعمها ويحمل عبئها عن أبيها، كما كان أبو سماح يتمنّى، بل تحوّلا معاً إلى كائنين ممتلئين بالوئام والمحبّة، وهذا أكثر بكثير ممّا كان أبوها ينتظره من زواجها من هذا التعس المسكين الطيب. صحيح أنّ فارق السنّ شاسع وكبير إلّا أنّهما قد أوجدا تلك المعادلة الصعبة التي يبحث عنها أيّ زوجين.

فرحت لهما من كلّ قلبي، وانتبهت فجأة إلى أنّني وأنا أسير كنت أبربر بصوت مسموع وأقوم ببعض الحركات بيدي كأنّني أحادث شخصاً ما يسير قربي. لا ريب في أنّ مَن رآني اعتقد جازماً أنّني مخبول يحادث عالمه الجواني من دون أن ينتبه إلى أحد...

زيارتي هذه قد حمّستني ودفعتني إلى التفكير جدّياً للبحث عن «سماح» أخرى أعيش معها في مثل عالم الهناء هذا الذي شاهدته بأمّ عيني.

فمن خلق سماح يمكن أن يخلق ألفاً مثلها، بل مئة ألف، ولم لا؟ فالحياة دائماً مفتوحة على احتمالات لا نهاية لها. لكن، المهمّ الآن أن أذهب إلى الشخص الذي حدّثني عنه برهان علّني أجد ضالّتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنشودة في فرصة عمل ما.

لكنَّ تفكيري في الارتباط بإحدى «السماحات» جعلني أتنازل عن شروطي وأقبل بأيّ عملٍ يُطلب إليّ مهما كان متعباً، وفي أيّ وقت، ليلاً كان أم نهاراً، لا يهمّ، المهمّ أن أعمل عملاً ثابتاً يوفّر لي دخلاً ثابتاً، وحينها تستقيم أموري، وأبدأ خطوة الاستقرار الأولى لقلبي وجسدي... حينها أستيقظ صباحاً فتكون «سماحي» قد أعدّت لي القهوة مع طبق صغير من الياسمين، وكأس كريستاليّة برّاقة ممتلئة بالماء العذب، فنرتشف القهوة متقابلين، وقد زيّنت وردة حمراء شعرها الكستنائيّ. «لن تخرج إلى العمل قبل أن تفطر». تقول لي، فأطيعها ثمّ أمضي إلى عملي بكامل زهوّي. أبدأ العمل بكلّ ما أوتيت من صبر وجلد وعزيمة، وأعود مساءً إلى البيت، إلى غرفتنا المرتّبة بأناقة ونظافة، حيث تفوح روائح عطرة من كلّ الأرجاء. «الماء ساخن»، تقول، فأستحمّ وأجلس منتعشاً نافضاً عنّي أيّ شعور بالتعب.

«أريد أن أكتب قليلاً»، أقول لها، فتهزّ رأسها مبتسمة برضا، فهي تعرف أن ليس لديّ أيّ شغف في الدّنيا غير أن أكتب. لقد أصبحت شغوفاً بها كالقراءة والكتابة وأكثر...

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٣ -

حملت كيساً ملوّناً بزهورٍ متطايرة وأشكال لُعب أطفال تبتسم فرحة بلا هموم، وقد وضعت داخله بعض قطع الملابس لطفل سيلد قريباً. أنا لا أعرف إن كان المولود القادم سيكون ذكراً أم أنثى؟ عموماً، أنا لا أجيد شراء الهدايا. توجّهت إلى الفرن الذي يعمل فيه «برهان» لأعطيه ما أحمل، ليوصله إلى زوجته. لم يكن هناك، لقد ترك العمل. أين يعمل الآن؟ سألتهم، لا يعرفون، أجابوا.

قلقت، وتوجّهت إلى غرفته النظيفة المرتّبة. طرقت الباب طرقتين، ففتحت لي «سماح» الباب، وبانت كسيّدةٍ ناضجة مكتنزة غير تلك التي كانت عليها. كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً أبيض ترتسم عليه زهور زرق ناعمة.

ابتسمت لي بودٍّ كبير:

- أهلاً عمّي مبروك، تفضّل.

- هل «برهان» في الداخل؟

- لا، سيأتي الآن، لقد ذهب لشراء بعض الحاجات، ادخل.

دخلت من الباب مواربةً، فحجمي أكبر من فتحة الدفّة الواحدة. حشرت نفسي، وبصعوبة انفلتُّ إلى الداخل. باغتتني رائحة عبقةٌ لطيفة تدلّ على النظافة والترتيب. لفت انتباهي تكوّرٌ صغير برز من تحت ثوبها لم أكن قد لاحظته من قبل عند البطن. فانتبهت لي بدورها:

- إنّني في الشهر الرابع.

تهلّل وجهي، فقد غمرتني السعادة. قدّمت لها الهديّة.

- لا يزال الوقت مبكراً. قالت بخجل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا يهمّ. قلت.

- ماذا تحبّ أن تشرب؟ سأعمل لك فنجان قهوة.

دخلتُ ركناً صغيراً فيه رفوف وثلّاجة صغيرة وأشياء بسيطة مرتّبة، تشكّل ما يشبه مطبخاً للأقزام السبعة.

ازداد فرحي، فقد رُصفت بضعة فناجين وأقداح تلمع من شدّة نظافتها في شكل أنيق منتظم، ووضعت بعض الزهور الطبيعيّة في وعاء فخاريّ ملوّن، وتغيّرت بعض قطع الأثاث. كان كلّ شيء مرتّباً إلى درجة أن تخشى معها أيّ حركة قد تودي بهذه الأناقة البسيطة.

قلت بصوت مرتفع لتسمعني:

- ذهبت إلى الفرن وقالوا لي: «برهان ترك العمل».

التفتت نصف استدارة نحوي مبتسمة. ردّت:

- نعم، لم يعد يعمل هناك.

- ماذا يعمل الآن؟!

- صدّقني لن أعرف كيف أشرح. سيأتي ويحكي لك كلّ شيء.

- كيف أحوال أهلك... أتزورينهم؟

- دائماً، وأحياناً تأتي أمّي مع أحد إخوتي.

- وأبوك؟

- بخير.

- هل يزوركما؟

- نادراً. كأنّه يحسّ بالخجل والحَرج من زيارتي، لمَ، لا أدري؟!

قدّمت لي القهوة مع كأس ماء. ولمّا هممت في أن أرشف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرشفة الأولى، همست لي بصوت فيه رجاء لطيف:

- إنّه يتغيّر، أنا أحبّه جدّاً، ولا أريده أن يكون شخصاً آخر.

نظرت إليها متسائلاً:

- برهان؟

هزّت رأسها إيجاباً.

- هل يضايقك؟

أجابت من دون تفكير وبسرعة:

- أبداً، إنّه طيّب وكريم ويحبّني ويرعاني، لكنّي أحسّ بأنّه قد أصبح أكثر توتّراً، وأحياناً تصدر عنه أفعال عصبية بعض الشيء.

اتّسعت حدقتا عينيّ بشكل عدائيّ! وقلت بانفعال:

- هل يضربك؟!

ضحكت مستغربة سؤالي، وردّت مسرعةً في ردّها:

- لا لا... إنّه لا يضرب ولا يهين... بالعكس، إنّه حنون جداً...

فجأةً، سمعنا نقرة صغيرة على الباب، فهناك من دفعه ودخل، برهان.

استغرب لثانية وجودي، لكن على الفور كشف عن ابتسامة عريضة مرحّبة بي. وأخذ أحدنا الآخر بالأحضان والعناق، وهو يضرب بكفّه على ظهري معاتباً.

- أهلاً بالغالي... اشتقت إليك يا عكروت، أين أنت؟! لم أعد أراك؟!

- سألت عنك وقالوا إنّك تركت العمل.

- صحيح، لن أعمل هناك، أجري يكاد يكفي، وكما ترى، سيأتينا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولد.

- وكيف ستتدبَّر أمورك؟

- إنّني أعمل.

- أين؟

- لدى مكتب لبيع العقارات، الدخل ليس كبيراً لكن في المستقبل سيكون أفضل، فالبلد كما ترى في حالة عمران دائم لا ينتهي، ولا سيّما أنّنا الآن مقبلون على مرحلة جديدة... سنطير فوق السحاب بلمح بصر.

كان وجهه أكثر تحفّزاً ممّا كان عليه سابقاً، وعيناه تشعّان قلقاً واضطراباً. وكان يتحدّث بحماس كبير وإيمان هائل بالغد، وكنت مقتنعاً بشغفه وحرارة كلامه.

غادرت وثمّة شيء من القلق قد تسلّل إليّ من دون مسوّغ، إلّا أنّي كنت سعيداً لحالهما معاً.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٤ -

قال عنّي معلّم النول إنّني إنسان طيّب. والأستاذ عادل كان يحبّني ويعدّني شخصاً بريّاً. لم أكن أفكّر كيف يفكّر الآخرون، لكنّي كنت متأكداً من أنّني لم آذِ أحداً أو أسيء إلى أحد، ولم أرتكب أيّ فعل قد يصيب شخصاً ما بإساءة.

دائماً ما كنت أسير «الحيط الحيط» كما يقال. وأعرف أنّني لم أرتكب أيّ فعل أستحقّ عليه العقاب. إلّا أنّ ما لم أفهمه في نفسي، ذلك الشعور بالخوف الدائم، كأنّ هناك مَن يراقبني ويحسب حركاتي صغيرها وكبيرها!! فأينما اتّجهت، وفي أيّ شارع أسير، وفي أيّ حانة أجلس، وإلى أيّ مقهى أذهب، أستشعر دوماً أنّ أحداً ما يتربّص بي ويترصّدني!!

حتّى في غرفتي التي لا قيمة لها تذكر، كنت أحسّ بوجوده، ولا أراه. أحاول أن أتجاهل إحساسي في بعض الأحيان، فأقنع نفسي بأنّ ما أحسّ به، ما هو إلّا محض خيال وترهات لا أكثر...

في أحيان قليلة، كنت أقنع نفسي، لكن في أحايين أخرى لا أستطيع التخلّص من هذا الشعور المريب، فألجأ إلى ذاكرتي القريبة والبعيدة، وأبحث بين ثنايا أيامي، علّني أكون قد ارتكبت فعلاً آثماً من دون أن أدري، فأستحقّ لأجله عقاباً ما.

أغرق في أفكاري إلى الحدّ الذي أجدني فيه قد تجمّدت عروقي من شدّة الخوف، وأنا متربّع فوق فراشي الإسفنجيّ المهترئ، ناظراً إلى الباب، منتظراً أن يقتحمني ذاك الذي أحسّ بوجوده من دون أن ألمحه؟! يجرجرني، على الرّغم من ترهّلي وضخامتي، على الأرض، مروراً بالدرج الضيّق إلى أرض الدار، إلى إسفلت الشارع... إلى وإلى... وإلى... لا أدري إلى أين!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أقاوم، ولا أتوسّل، ولا أتكلّم، فقط كان ذهني يعمل بأقصى قدرته كي أتذكّر ما أنا فاعله من ذنب لأستحقّ عليه عقاباً وإهانات!

أعود إلى وعيي، وأستجمع قوايَ، فأشعل لفافة تبغ. تهدأ نفسي قليلاً، وأنفض عن تفكيري كلّ هذه المنغّصات التي ليس لها أيّ مسوّغ، لكنّي أحسّه موجوداً في كلّ تفاصيل حياتي، وفي كلّ زاوية من الغرفة، في جيوب سترتي وبنطالي، في حذائي، وبين شعرات رأسي، وفي أنفي. إنّه يراقب تفكيري. إنّني أحسّه منتشراً على مسامات جلدي فيشعرني بالخوف والاستسلام، على الرّغم من أنّني أؤمن أنّ الموت ليس مشكلة لديّ، لكن عندما تعيش في خوف ورعب من شيء ما لا تدركه، حينها يكون الموت الأقسى والأصعب!!

Telegram:@mbooks90

إنّما، على الرغم من خوفي من مراقبته ورصده لي، إلّا أنّني كنت أعيش طموحاً خلّاباً زاهياً، وهو أنّني أستطيع أن أكتب، فأنا أستطيع أن أقرأ كلّ شيء على الرغم من أنّني لا أفهم كلّ شيء، فلِمَ لا أكتب؟! هكذا كنت أفكّر.

أحضرت ورقاً أبيض ناصعاً وأقلاماً بألوان عدّة: أزرق، أخضر، أحمر... وأقلاماً رفيعة وعريضة، فوسفوريّة وبرتقاليّة وصفراء... أقلام رصاص، ومبراتين وممحاة كبيرة. كلّ العدّة أصبحت جاهزة.

انبطحت على الأرض فوق بطني الهيولي الضخم، وأمسكت قلماً لم يعجبني لونه، فأخذت غيره على الفور. أتململ... أتقلّب، أحتار بما سأكتبه، فأرسم خطّاً منحنياً، وآخر مستقيماً، وأرسم دائرة صغيرة، أحوّلها إلى شكل يشبه الزهرة، ثمّ ألوّنها بألوان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفلوماستر الزاهي. عضضت على طرف القلم مرّات ومرّات.

قلقت. ثمّة ما يمنعني من الكتابة. وقفت وأعددت ركوة قهوة ممتلئة. صببت في كأس كبيرة، وأشعلت لفافة تبغ. دخلت في شرود وتفكير كبيرين.

ثمّة ما يمنعني من الكتابة! رحت أذرع غرفتي الضيّقة بخطوات صغيرة جيئة وذهاباً... ثلاث خطوات ونصف ذهاباً، ثلاث خطوات ونصف إياباً، وأنا مطرق أسحب نفساً من الدخان وأطلقه من فتحتي منخريّ، عسى أستطيع وضع يدي على مكمن الخلل الذي يمنعني من الكتابة.

مرّت دقائق عصيبة على دماغي وأنا أفكّر، إلى أن لمعت الفكرة في رأسي، وأضاءت لمبة المخيّلة بين عينيّ، وقلت في سرّي: «وجدتها!!»

الآن عرفت السبب الأكيد لعدم تمكّني من الكتابة. إنّها الطاولة... نعم الطاولة والكرسي، هما أساس العدّة والعتاد لمن يريد أن يكتب.

جمعت أشلاء أفكاري وهرولت مسرعاً بوزني الكامل وهبطت السلّم الضيّق وأنا ألهث بصوت مسموع. فتحت الباب المؤدّي إلى الطريق، ورحت أسير شبه مهرول، إلى أين لا أدري! وبعد عدوي أكثر من مئة متر، أخذ لهاثي يتضاعف، وانتبهت إلى أنّ لساني أخذ يتدلّى فوق ذقني.

وقفت في مكاني، فأحسست بأنّني أشبه بقطّ يخرج من محبسه فجأة وينفلت راكضاً بضع قفزات ثمّ يقف متسمّراً في مكانه وقد نسي لمَ قد قفز، كأنّ شيئاً لم يكن.

تساءلت لماذا فعلت هذا؟ فتذكّرت «الطاولة»، أجل، عليّ أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحصل على طاولة وكرسيّ لأبدأ ما عزمت عليه... أن أكتب.

أخذت نفساً عميقاً واستعدت رباطة جأشي وبدأت أسير ببطء أفكّر في الوسيلة التي سأحصل عبرها على مرادي.

ذهبت إلى معلّم النول الذي هجرته لبضعة أسابيع من دون سبب.

دخلت المشغل، وإذ بي أراه جالساً على كرسيّ وظهره لي، فتنحنحت، فاستدار برقبته النحيلة نحوي وابتسم متمتماً:

- تعالَ.

اقتربت منه. جلست على كرسيّ خشبيّ قُبالته. كان يرتّب بعض الخيوط الصوفيّة الملوّنة بأصابعه الدقيقة، بحركة تنمّ عن مهارة وأناة. ثمّ توقّف عن العمل ونظر إليّ بعينين لامعتين ممتلئتين حنوّاً وطيبة، وهمس بصوت واهن:

- الشاي جاهز. صبّ لنفسك قدحاً وتعالَ نحكِ...

وقفت بلا تردد، وصببت شاياً وعدت على عجل إلى مكاني. انتبه إلى حيرتي وارتباكي، فسألني:

- ما بك؟

- لا شيء.

- في فمك كلام.

- أريد أن أكتب.

- فلتكتب؟!

- لا أستطيع!

- إذاً، لا تكتب إن كنت لا تستطيع؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكرّرت بإصرار:

- سأكتب.

- جيّد.. اكتب.

فقلت بصوت مرتفع بعض الشيء:

- لا أستطيع!!

- وما الذي يمنعك؟

- الطاولة!

لم يستوعب ما أقول:

- ماذا؟

- الطاولة، ليس لديّ طاولة وكرسيّ كي أكتب. أنا منبطح على الأرض ولا يمكنني الكتابة...

ضحك بملء فيه مستغرباً:

- يا سيدي بسيطة. سيكون لديك طاولة وكرسيّ.

- كيف.

أشار بإصبعه إلى الطاولة التي فرد عليها الخيوط البهيّة الملوّنة.

- هذه، هل تفي بالغرض؟

- لكنّك تعمل عليها!!

- لا يهمّ، أتدبّر أمري.

رفضت الفكرة من جذورها، مبيّناً له أنّ بإمكاني الحصول على طاولة وكرسيّ من أيّ مكان، أو أيّ شخص، أو يمكنني أن أشتري واحدة من سوق المفروشات المستعملة وينتهي الأمر. ثمّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوضحت له بصدق أنّني لم آتِ إليه لآخذ طاولته، بل كان جلّ هدفي من المجيء إليه أن أفضفض له عن مكنوناتي ورغباتي في هذا الأمر.

نظر إليّ بإمعان، وران صمت طويل بيننا، صمت فقدت من خلاله كلّ قدرة على التفكير.

أمّا هو فقد بدأ يلملم حزم الصوف الملوّن بتؤدة ويرتّبها جانباً بأناقة، وهو يتمتم:

- لقد جئتَ في الوقت المناسب، وإلى المكان المناسب يا مبروك.

- كيف؟!

- إنّني ألملم أشيائي لأنّني لن أعمل في هذه المهنة بعد الآن، فلم يعد أحد يهتمّ بهذه الترهات. كلّ ما يجري حولي يقول لي بأنّني ومهنتي لم نعد على درجة من الأهميّة، بل أكثر من ذلك. هذا النول اليدويّ، وهذه الخيوط، باتت تدعو إلى السخرية والشفقة. أسمع كلاماً كثيراً يتطاير هنا وهناك حتّى من أفراد أسرتي وأقاربي، مفاده أنّني أضيّع وقتي وجهدي بلا فائدة. حتّى «المكّوك» الخشبيّ الذي سعى ملايين المرات ذهاباً وإياباً ليربط اللُّحمة بالسدّة، ذهب سعيه هباءً بلا جدوى، إنّه حزين مثلي، لكنّه لا يتكلّم، ويبدو أنّني قريباً سأصبح مثله وأصمت. ثمّ إنّ صحّتي لم تعد تسعفني لأكمل المشوار. لقد أصبحت حياتي بلا جدوى، على الرّغم من أنّني كنت دائماً، كما قلت لك مرة، أتضرّع إلى الربّ وأطلب إليه ألّا يُفقدني الجدوى.

حاولت أن أخفّف عنه هذا الألم البادي على محيّاه بوضوح ودون تورية، لكنّي لم أعرف ما أقول بالضبط. بدأت كلامي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متلعثماً متردّداً، أبحث عن شيء أقوله فلا أجد. أردته في هذه اللحظة أن يكون أبي لأضمّه إلى صدري وأشدّ من أزره.

- يا أبتِ، لقد قدّمت الكثير، لقد تعلّمت، وسافرت وأحببت وفرحت وحزنت، وأنجبت أولاداً، وأصبح لديك أحفاد، إنّك، يا أبتِ، حياة بأكملها، فلمَ هذا اليأس؟!

نظر إليّ بعينين حانيتين، وحركة شفتيه تنمّ عن رغبة في البكاء، وقال:

- يا بُني، أنا مجرّد ذرّة غبار تعيش على ذرّة غبار، تسبح في ذرّة غبار. فالحياة خفيفة على نحو لا يطاق، خفيفة مثل الوبر، مثل غبار متطاير، مثل أيّ شيء سيختفي غداً.

لقد عملت في هذه الدنيا بحبّ غامر وشرف كبير، إلّا أنّ كلّ ما جرى وما يجري يكاد يقتلني. لقد أهانوا الطبيعة والعلم والقضاء، أهانوا الشوارع والعمارة والحيوان، وقبلها جميعاً، أهانوا أرواح الناس. وأنا لا أستطيع أن أستمرّ بروح مهانة، وقلب خائف...

ذكّرني كلامه برسالة الأستاذ عادل.

- آهٍ يا مبروك... آهٍ يا صديقي، لقد وصلت إلى نهاية الطريق ولم يبقَ منه إلّا خطوات قليلة، لذلك لا أريد لي أن أفقد صوابي ويضيع عقلي، فحتّى في الأمتار القليلة الباقية من حياتي لم أكن متأكّداً مَن نحن؟! هل نحن عرب أو فينيقيون أو عجم، أو ربّما نحن بقايا الرومان أو الإغريق، أو ترانا بقايا السلاجقة والعثمانيين والفرنسيين؟! أتُرانا نحن لم نكن نقيم إلّا داخل وعاء جاءه كلّ هؤلاء وخُلطوا وطُحنوا، حتّى شكّلوا منا مزيجاً خاصّاً لا يشبه في مكوّناته أحداً؟! أمن أجل هذا لم تكن لدينا أيّ خصوصيّة؟! أم ترانا نمتلك كلّ الخصوصيّات؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحن أناس محبّون وكارهون، مدنيون وبدو، متعلّمون وجهلة، منفتحون ومتعصبون، قساة ولطفاء، أصحاب وفاء وغدر، كرماء وبخلاء، كسولون ومتفانون، أصحاب مروءة وخونة، مؤتمنون وسارقون... نحن شيء لا يمكن الإمساك بأيّ زاوية فيه... عندنا كلّ شيء ولا نمتلك شيئاً، لدينا كلّ الخصوصيّات وليس لدينا أيّ خصوصيّة، إنّنا مزيج مبهر من التناقضات.

هل عليّ أن أصدّق أحداً ممّن قرأت له، عندما قال على نحو صادم أفقدني توازني، وشتّت كياني: «إنّنا بقايا نطف الحضارات التي مرّت على هذه البقعة من الأرض؟!» خذ الطاولة يا بُني فهي هديّة لك، فلعلّك تملك جذوةً متّقدة غير التي انطفأت داخلي.

صَمتَ. وكان وجهه شاحباً جداً.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٥ -

شدَّة الآلام التي تعيشها «سماح» هائلة على نحو لا يوصف، فثمَّة بقع زرق تربَّعت على كامل جسدها، هذا ما علمته فيما بعد، بثور ممتلئة بالصديد تحت إبطيها وأسفل ظهرها، مع انتفاخات كبيرة حول العينين والرقبة.

- دخيلك يا برهان، سأموت، أريد أمّي...

سحبت صديقي «برهان» جانباً لأعرف منه عن العلاجات التي أُعطيت لها، فقال مرتبكاً:

- أخذتها إلى امرأة لتكشف على حملها، وطلبت إليّ أن آخذها إلى شيخ جليل ليعالجها من مرض لا يستطيع الطبُّ علاجه.

- وما هذا المرض؟!

- لا أدري، لا اسم له، فهو مرض غريب ونادر، ومن تُصَب به وهي حامل فقد تفقد الجنين، أو قد يأتي في هيئة قرَد والعياذ بالله؟!

فسألته مستفهماً:

- ماذا كان ينتابها؟

- صارت تأكل الصابون والتراب، لذلك أخذتها إلى ذاك الشيخ الجليل، وبدأ يقرأ على رأسها كلاماً لم أفهمه. بدأنا على هذه الحال لأكثر من ثلاثة أشهر، وقد طلب إلينا الحضور إليه لعلاجها كلّ يومين مرّة... وفي كلّ مرّة يأخذ منّي مبلغاً كبيراً لا طاقة لي عليه، فبدأت أستدين من صاحب مكتب العقارات الذي أشتغل عنده، وبدلاً من أن أعمل معه، أصبحت عبداً له كي يقرضني المزيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد مدّة نظر الشيخ إلى وجهي، وكان أبرصَ ذا لحية شائبة، وبعمامة خضراء وجلباب أبيض، وقال لي:

- يا بني، لقد عرفت الآن علّة زوجتك، وعرفت الدواء الشافي لها.

- أقبّل قدميك يا سيدي، قلت له، ما هذا العلاج؟

أخرج قماشة خضراء مطرّزة بخيوط ذهبيّة وفضيّة، وعليها بعض القطع من قواقع الحلزون الأبيض، فوضع القماشة على طاولة، وفردها ببطء ثمّ أخرج منها مصحفاً ذا غلاف بنيّ مذهّب، وقال لي:

- هذا المصحف الشريف مقروء عليه من مئة عالم مطهّر، وقد قرأته خمس وعشرون فتاة بتولاً، وقد بخّرته بدخان شمع طاهر أحضرته من الديار المقدّسة، ولولا أنّ مصيبتك كبيرة لما منحتك إيّاه...

- بارك الله بك يا مولانا.

نظر إليّ بعينين حمراوين كعيني جرذ، وقال:

- لكن المشكلة أنّه مكلف جدّاً يا بني!

- لا يهمّ يا شيخي، سأتدبّر أمري وأدفع لك ما تريد.

فنهرني صائحاً:

- لعنك الله أيّها الفاسق، وهل تظنّ أنّني أبيعك إيّاه؟ إنّني أهبك إيّاه أيّها الجاحد، فهذا لا يُباع ولا يُشرى، إنّه يُوهب فقط؟!

- شكراً يا مولانا.

- لكن المطلوب أن نعطي كلّ مَن قرأه، وكلّ بتول قرأته، بعضاً من مالٍ حسنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وطلب إليّ مبلغاً لو عملت لعشر سنين لَما جمعته. ووافقت.

- أحضر المال وسأقول لك ما تفعل.

طرقت أبواب خلق الله جميعاً كي أستدين المبلغ ممَّن كنت أعمل معهم، ومن أقاربي وأباعدي، وبقيت أربعين يوماً وأنا أجمع ما يمكن جمعه. تحوّلت إلى شحّاذ يستجدي حتّى المارّة، وأنا أتضرّع وأتوسّل وأقسم بأنّني سأعيد إليهم ما اقترضته.

جمعت المبلغ إلّا قليلاً وذهبت به إليه. شكوت إليه أمري، وأقسمت له إنّني سأكمل له ما ينقص في القريب العاجل. رقَّ قلبه لي وأعطاني المصحف.

مددت يدي لآخذه، فقبض عليها بقوّة قائلاً:

- هل تعرف ما ستفعل به؟

- لا يا سيّدي، قل لي.

- تتوضَّأ وتصلّي ركعتين لله تعالى قبل صلاة الفجر، وتفتح على سورة البقرة، فتنزع الصفحة الأولى وتشطرها بالطول إلى نصفين متساويين، وتقطع بسكين مطهَّر نصف الصفحة إلى أربع وعشرين قطعة متساوية، وتأتي بكأس ماء فتبسمل مئة مرّة وتنفخ على الكأس، ثمَّ توقظ زوجتك وتناولها كأس الماء المطهَّر وقطع الورق المباركة، لتبدأ في بلعها مع الماء، إلى أن تنتهي نصف الصفحة الأولى كاملة، وتقوم بالفعل نفسه كلَّ يوم حتّى نهاية السورة.

لقد نفّذت أوامره بحذافيرها، وكانت «سماح» تستجيب لطلبي وهي مستغربة ومبتسمة من دون أيّ ممانعة أو اعتراض، لكنَّها كانت تبتلع قطع الورق المقدّس بصعوبة بادية. وبعد أن وصلنا إلى الصفحة السابعة، في اليوم الرابع عشر، بدأت تظهر بعض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البقع الصفر وتتحوّل إلى الاخضرار، ثمّ تبدأ بالتدرج إلى اللون الأسود، وبدأت أصابعها تنتفخ، وأقدامها كذلك، كما أنّ أمعاءها أخذت في التقلُّص والتشنُّج إلى درجة كبيرة، وانقطعت شهيّتها عن الطعام.

لم تعجبني الحال، فذهبت إلى الشيخ وقلت له:

- يا مولانا، إنّ وضع زوجتي يزداد سوءاً.

فقال لي بلا تردّد:

- هذا أفضل، إنّ جسدها يطرد الخُبث الموجود داخله.

- لكن يا شيخي، إنّها حامل، وأنا أخاف عليها وعلى الطفل.

- إنّه هو الآخر يتطهّر، فإبليس لا يعرف كبيراً ولا صغيراً.

أكملنا الصفحات العشرين، أقطع كلّ صفحة إلى نصفين متساويين طولاً، ثمّ أقطع كلّ نصف إلى أربع وعشرين قطعة متساوية، وتبتلعها «سماح» مع المياه المقدّسة، فيزداد وضعها سوءاً.

ونحن نتحدَّث، ويروي لي ما جرى، رأت إحدى الجارات سماح في هذه الحال، فصرخت في وجه برهان:

- ماذا حلَّ بالمسكينة؟! إنّها تحتاج إلى مستشفى على الفور.

حاول برهان أن يشرح، فقاطعته بشراسة:

- ولا كلمة، الآن سنأخذها.

خضع للأمر على مضض، كمَن أُسقط في يده، وذهبنا إلى المستشفى. استغرب الأطبّاء، ولم يكن يجيب عن أيّ سؤال، ولم يُفشِ سرَّ الصفحات!

كانت هناك طبيبة يتجاوز عمرها الستين عاماً بدأت تفحص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«سماح»، ومسحت يدها على شعرها، وسألتها:

- هل أكلت أو شربت شيئاً قد يكون سبب أوجاعك؟

تلكّأت «سماح» قليلاً ثمّ شرحت للطبيبة ومن حولها باقي الأطباء، عمّا كانت تأكل من أوراق لمدّة ثلاثة أسابيع أو أكثر، فضربت الطبيبة على رأسها مذهولة ووجّهت الكلام إلى برهان مباشرة:

- هل تعرف ما فعلت؟ إنّ الحبر الذي يُكتب ويطبع به عبارة عن موادّ سامّة، بل قاتلة أيّها الحمار؟!

بدؤوا في إجراءات غسل المعدة، مع بعض الأدوية، وبقوا في هذه الحالة لساعات عدّة، و«سماح» تذبل شيئاً فشيئاً، وتزداد البقع الحمر والسود والخضر في الظهور على كامل جسدها. لقد تغلغل السمُّ في دمها ودم الطفل.

في اليوم السابع، خرج الأطبّاء الثلاثة وأبلغوا برهاناً أنّهما قد فارقا الحياة!!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٦ -

برهان الطيب، برهان اللطيف، استغربت فعلته عندما دخلت عليه في مكتبه العقاريّ المتواضع، حيث الأثاث لا يتعدّى طاولة خشبيّة ذات أدراج صغيرة عليها هاتف يتربّع بلونه الأحمر الفاقع، ثمّة أربعة كراسٍ خشبيّة منجّدة بالجلد البنيّ الصناعيّ المتفسّخ المهترئ، وقد تربّعت سجّادة رخيصة خلف كرسيّه الدوّار تُظهر صورة للكعبة المشرفة والملايين يطوفون حولها. لم أعدُّهم لكنّهم كانوا يملؤون المشهد. وثمّة إطاران خشبيان، كُتبت داخل الأول عبارة «اتقِ شرَّ من أحسنت إليه»، وفي الثاني «الحسود لا يسود». لقد أطلق لحية كثّة طويلة غطّت نصف صدره. استغربت ما يفعله حين دخولي عليه فجأة، إذ كان قد غرز إصبعَي يده الثخينين في فتحتَي منخرَي رجل أربعينيّ، ورفع له وجهه إلى أعلى وهو يشتمه بكلمات لم أعتد سماعها قبلاً من برهان الطيّب، والرجل يسوّغ له، ويشرح له حاله وقد فاضت عيناه بالدمع من شدّة الألم.

سحب برهان اللطيف إصبعيه من فتحتَي أنف الرجل بعد أن سأله:

- متى؟

- بعد خمسة أيّام.

- لنرَ!!

قال كلمته الأخيرة بعد أن ضربه على رأسه بمسبحة ذات حبّات عقيق كبيرة بحجم حبّات العنب، ودفعه خارج المكتب، فاختفى الرجل مهرولاً. سألت برهاناً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- خير، ما به؟

- لقد تأخّر أربعة أيّام عن دفع إيجار البيت الذي أجّرته إيّاه!؟

أكمل بهدوء كأنّ شيئاً لم يكن.

- أهلاً بالغالي، ماذا سنشرب؟

قلت له مكتئباً:

- لا أريد شيئاً.

- لا لا، سنشرب فنجان قهوة مرّة من أفخر الأنواع.

وبربر بضع كلمات بصوت مسموع كأنّه يشرح لي سبب فعلته.

- شعب لا تنفع معه إلّا الصرماية.

ثمّ قدّم لي فنجان القهوة المرّة التي صبّها من «ترمس» معدنيّ، وأردف:

- وأنت، كيف حالك؟

لم أعرف بما أجيبه، فأنا حقيقةً لا أعرف كيف حالي. هززت رأسي متمتماً:

- الحمد لله، مستورة.

جلس وراء مكتبه وأخرج من الدرج علبة دخان فاخر، فقدّم لي سيجارة وهو يقول بتباهٍ:

- ذُق...

شكرته برفع يدي، قائلاً:

- لا أُغيّر.

وأخرجت من جيب قميصي علبة دخاني وسحبت منها لفافة تبغي العنيف. أشعلتها وأنا مطرق لا أدري ما أقول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انطلق برهان بصوت جهوريّ لم يكن له، وبدأ معزوفة في النقد والنصح والتنبيه، يفنّد بها حياتي وفشلي وكسلي وقلة حيلتي. وأنا أصغي إليه دَهِشاً من الثقة الهائلة التي يتمتّع بها هذا الرجل الذي لم أعد أعرفه.

قلت في نفسي مشككاً: «كأنّني جئت إلى غير مكان!»

حسبت أنّي قد أضعت طريقي تجاه صديقي الوفي برهان، وجئت إلى شخص آخر. أحسست أنّني أغوص داخل دوّامة من الشكّ، وكي أزيح الغشاوة التي أعيشها، قلت بصوت مرتفع قليلاً، وبصيغة السؤال:

- برهان؟

- نعم.

- لا شيء؟!

صمتٌ. كنت فقط أريد أن أتأكّد من أنّه هو الشخص نفسه الذي كنت أعرفه سابقاً. كان هو، هو بالضبط، إلّا أنّ شيئاً ما لم أدرك ما هو قد فارق ملامح وجهه.

أسند مرفقيه على الطاولة واقترب بجسمه نحوي ماطّاً بدنه ورقبته في اتّجاهي، كمَن يريد أن يلقي في أذني سرّاً كبيراً.

- منذ سنتين أو أكثر، لم أعد أذكر، أي بعد وفاة سماح وما حملته في أحشائها، بدأت أفكّر في ما عليّ أن أفعل؟ لقد بدأت أتعلّم القراءة والكتابة.

نظرت إليه بسرور، وأثنيت على خطوته هذه. قلت:

- شيء رائع.

- لكن، مضى أكثر من عامين وأنا لم أتعلّم إلّا الشيء اليسير،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ودون أن أحسّ بأيّ تقدّم. كان جلّ همّي أن أعرف كيف أرسم توقيعي على المعاملات العقاريّة، لذلك جئت بشاب يحمل شهادة جامعيّة، أعتقد أنّه محامٍ، استخدمته لديّ، وهو يقوم بقراءة كلّ شيء، وأنا أنصت إليه، ثمّ آمره بما عليه أن يفعل.

هززت رأسي، وقلت:

- جيّد.

- إنّه حمار، لا يعرف كيف يتصرّف إن لم أرشده أنا!

- جيّد.

- لقد بتُّ أملك بيوتاً عدّة، أبيع وأشتري وأربح، أبيع وأشتري وأربح، الأمر لا يحتاج إلّا إلى قليل من الفطنة والشطارة ورضا الوالدين، وقبل كلّ شيء رضا ربّ العالمين.

هززت له رأسي موافقاً.

مدّ يده إلى وجهي، وبإصبعيه اللذين كانا داخل منخرَي الرجل، جمع كميّة كبيرة من لحم خدّي المكتنز وقرصني مداعباً.

- والله، اشتقت إليك يا عكروت.

عدت إلى غرفتي التافهة الآمنة، وقرّرت حينها أنّني لن أذهب إليه ثانية، فقد كان ثمّة شيء أحبّه فيه، لا أدري ما هو، قد غادر وجهه وعينيه إلى غير رجعة، أعتقد إلى غير رجعة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٧ -

دخلت غرفتي، وخيط ماء يسيل من شحمة أذني إلى صدري مروراً برقبتي ذات الثنيات.

كنت أحسّ بمزيج متناقض من الألم والحزن والسعادة؟! إلّا أنّي كنت محبوراً وفرحاً بدرجة أكبر.

جلست إلى الطاولة السحريَّة التي ستفكّ عقدتي وتوصلني إلى مرادي حين أضع عليها الأوراق البيض والأقلام الملوّنة الزاهية، وأبدأ في الكتابة التي لطالما كنت مستعدّاً للموت من أجلها.

كلّ الأسباب تهيّأت لي: أوراق، أقلام، طاولة، كرسيّ بلاستيكيّ أزرق اللون، أعطاني إيّاه أبو سماح عربونَ صداقة ومحبّة، وفوق كلّ هذا، هناك رغبتي وشغفي الحارق لأن أكتب وأكتب!

ماذا تبقّى؟

لا شيء سوى أن أبدأ...

ملأت الإبريق ماءً. غلى الماء فيه. ثمّ وضعت ملاعق عدّة من البنّ البنيّ الغامق، ففاحت رائحة القهوة، وملأت المكان بذاك العطر السحريّ الذي لا يشبهه شيء.

- تمام.

قلت في نفسي «تمام»، بل بصوت مسموع. لقد سمعتُني وكرّرت:

- كلّ شيء تمام التمام.

ثمّة سكون وهدوء بديع يغلّف المكان. الأطفال والعصافير نيام، والليل يعبق برائحة الزنبق أو الياسمين... لا أدري، وبرودة ناعمة تمسح بأصابعها الحريريّة على نوافذ المدينة وأسطحها ووجوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناس. لحظتها، أحسست بأنّني أمتلك الدنيا وما فيها، وأنّني قويّ ومتجانس إلى درجة صدمتني، فأنا لم أختبر شعوراً كهذا طيلة حياتي الماضية. إذاً، لم يبقَ إلّا أن أبدأ الكتابة.

أمسكت الأقلام واحداً تلو الآخر. عضضتها. ملأت الصفحة الأولى بالشخبرة والنقط والخطوط المبعثرة!! لم أستطع أن أكتب أيّ كلمة. حاولت أن أكتب اسمي «مبروك»، ولم أفلح.

نصف إبريق القهوة مع ثماني لفافات تبغ ابتلعتها دون جدوى.

وقفت، مشيت، جلست، رصفت الأقلام بعضها إلى جانب بعض، عددتها، شربت ماءً وقهوة وعرقاً من دون فائدة.

بدأ ضوء الصباح في التسلُّل بلا نتيجة.

لم أستطع أن أكتب شيئاً. لا كلمة، ولا حتّى حرفاً واحداً يتيماً.

لقد أُسقط في يدي، وعرفت يقيناً أنّني لا أعرف.

اكتشفت خطئي بعد عناء وألم، أن يقرأ المرء شيء، وأن يكتب هو شيءٌ آخر. أن يكون المرء ظالماً شيء، وأن يكون مظلوماً شأنٌ آخر. أن يكون قاتلاً شيء، وأن يكون مقتولاً شأنٌ آخر. أحدهما لا يشبه الآخر، إطلاقاً.

لو أنّ الأستاذ عادل لا يزال مقيماً هنا، لذهبت إليه وحكيت له كلّ شيء، كلّ ما أفكّر فيه وأحلم به. هو حتماً كان سيتولّى أمر الكتابة بدلاً عنّي. لكنّهم نفوه خارجاً، وبقي جاره العنيف الفظّ الذي يزداد قوّة وصلفاً وهيمنة يوماً بعد يوم.

نظرت فجأة نحو النافذة المفتوحة، فلمحت ذاك الذي كان يراقبني. يراقبني. جفّ الدّم في عروقي. وضعت كفّيَ السميكتين على وجهي علّني أختفي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٨ -

صباحاً، وأنا أسير، لفتني منظرٌ أثار استغرابي. فركت عينيّ، ليس لأنّ قطرات العرق تنسال من جبهتي المتغضّنة، فقد اعتدت لسع الملوحة الحارق صيفاً وشتاءً.

لكن، لمَّا كنت أسير في الشارع الرحب الواسع، كنت أشاهد صوراً عدّة لوجوه لا أعرفها قد أُلصقت بشكل فوضويّ وقح على طول الحيطان وعرضها لرجال مبتسمين أنيقين وديعين، وكلّ واحد منهم قد كتب تحت صورته جملة أقلّ ما يُقال عنها إنّها ستنقذ البشريّة جمعاء من البؤس الجاثم فوق القلوب.

آخرون... وآخرون... وآخرون...

حماة الأرض والعرض والوطن والشعب...

لا أدري لماذا، لكنّني صدّقتهم جميعاً. دغدغني شعور طاغ بالحبّ نحوهم، وقد خجلت من نفسي عندما راودتني فكرة وجودي بينهم، لكنّي تراجعت على الفور عن هذه الفكرة الحمقاء التي تسرّبت إليّ بغتةً، إذ كيف لي أن أكون بين هؤلاء القدّيسين الأخيار؟!

كيف سمحت لي مخيّلتي المريضة أن أقارن نفسي بهم، وأتربّع بشكلي الهيولي وعاهاتي الهائلة لأكون بينهم؟! لن يصدّقني أحد، ولن يؤمن بي أيّ غبيّ... طردت الفكرة من تلافيف دماغي دون تردُّد، ومشيت.

إلّا أنّ فضولي دفعني إلى النظر في تلك الوجوه النيّرة مرّة تلو مرّة، وأنا أقرأ ما كتبوه، فأنا أحبّ القراءة في كلّ الأحوال.

لم أصدّق. إنّه هو، لا يشبهه، بل هو بعينه، برهان؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّه صديقي برهان، زوج سماح الميتة، صهر أبيها الميت، وأمّها وإخوتها القتلى الميتين. هم ما زالوا يمشون على الأرض ويتكلّمون، لكنّهم ميتون.

أطلت النظر إلى صورة برهان المُلصَقة على الأعمدة والأحجار، إنّها في كلّ مكان. نظرت إلى عينيه وابتسامته التي أعرفها، لكنّ شيئاً ما يدلّ على أنّه ليس هو نفسه مَن أعرفه. كان كلّما التقاني يضرب بكفّه على كتفي قائلاً: «اشتقت إليك يا عكروت». وكنّا نضحك، فقد أحببت ذلك.

لقد رشّح نفسه إلى البرلمان. حدّقت إلى فتحتَي أنفه، وتذكّرت ذلك الشاب الذي تأخّر عن دفع المعلوم إليه، كيف كان يغرز إصبعيه في منخريه إلى الحدّ الذي جعل عينَي الرجل تدمعان من شدّة الألم والذلّ.

لم أستطع أن أمحوَ هذه الصورة من رأسي، بل تطابق وجه الرجل الذي لم أنسَ ملامحه مع صورة برهان المبتسم، الذي يَعِدُ البشرَ بالحبّ والعدل والعطاء.

لم أعد أستطيع الفهم، فأنا أصلاً لا أستطيع الفهم، لذلك أطرقت وسرت بهدوء المغيَّب، ولمَ لا؟! فلا يزال الربيع ينثر عبيره القاتل فوق البلاد والعباد.

لم أفهم ما هذا الذي يجري إلّا أنّني أحسست بأنّه لم يعد أمامي الآن إلّا أن أركض بعيداً، بعيداً جداً، علّني أستطيع تقبيل الجبال وأبكي!!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٢٩ -

قبل بزوغ الشمس بقليل، تبدأ الحشرات رقصاتها وطنينها الناعم، وتفتح العصافير مناقيرها الصغيرة مصدرة زقزقات متناغمة ومتنافرة كمعزوفة مرتجلة بديعة، وهي تتقافز من مكان إلى آخر برشاقة نادرة. حينها، يبدأ بنو البشر في الاستيقاظ والتمطّي، ليبدؤوا في الانتشار والتبعثر فوق خريطة حيواتهم.

وإذ بك لم تعد تسمع طنينَ نحل، ولا غناء عصفور، همهمات خشنة لرجال، وصراخ أطفال، وضجيج نساء فحسب. وهذا ما يحصل عادةً كلَّ يوم.

إلَّا أنَّني في هذا الصباح، لحظة خروجي إلى الطريق، لم أرَ حولي أيَّ شيء، ولم أسمع أيَّ صوت أو طنين؟! أقف وسط أرضٍ بورٍ جرداء، لا أبنية، لا شوارع، لا بشر، ولا حتّى نبتة خضراء واحدة.!! مجرَّد صحراء فارغة من أيّ شيء، إلَّايَ والرمل!!

تلفَّتُّ دَهِشاً يُمنة ويسرةً علّي أكتشف أثراً لشيء ما، لكن من دون جدوى، ثمَّة فرااااغ في كلّ الاتّجاهات.

مشيت في هذا القفر الممتدّ.

فجأة، بدأت أسمع أصواتاً مبهمة وغير واضحة.

بان لي من بعيد جدار عالٍ من غبار أصفر يقترب من اتّجاهات عدَّة. أصابني فزع.

أمعنت النظر فتبيَّنت ملامح شيء ما، يزداد وضوحاً مع كلّ خطوة أخطوها... ورحت بدوري في اتّجاه الصوت والغبار الذي جعل الشمس تختفي إلَّا قليلاً.

اقتربت. اقتربت، فبان لي صفّ طويل، وراءه صفّ، وصفّ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأغنام وهي تسير مهرولة على غير هدى. كانت الكباش والأغنام والحملان الصغيرة تشكّل بحراً لا نهاية له، وثغاؤها يملأ الفضاء بضجيج هائل.

وجدتني أسير بينها من تلقاء نفسي.

أردت أن أناجي وأتحدّث بصوت مسموع، إلّا أنّ صوتي خرج من حلقي في شكل ثغاء كبش.

لم أصدّق ما أسمع. حاولت مرّة ومرّة ومرّة، إلّا أنّني لم أستطع إلّا أن أثغو بصوت واضح ومنسجم، وأخذ لساني يتدلّى وأنا أصيح، حلقي جافّ كبئر مهجورة.

حاولت أن أغطّي رأسي وعينيّ بيدي، فتلمّست قرنين معقوفين كبيرين قد تربّعا بثبات فوق قمّة جمجمتي. فزعت.

تلمّست أطراف جسدي مصعوقاً، إذ كان مكسوّاً بالصوف! نظرت إلى قدميّ وقد تحوّلتا إلى أظلافٍ قد شُطرت من المنتصف، وصرت أسير على أربع. لم أصدّق ما صرت إليه. لقد صرت خروفاً؟!

تدافع القطيع من حولي في حركة هائجة. لم تسعفني بدانتي وترهلي في مجاراته، فأنا خروف سمين جدّاً. أُرهقت وأنا أحاول مجاراة القطيع الهائل، إلّا أنّني فشلت وسقطت على الأرض الرمليّة منبطحاً، وتمرّغ وجهي والتصق بشيء بارد. حاولت أن أتبيّن سبب هذه البرودة، فلم أميّز شيئاً، فقد أصبحت العتمة كاملة، وأحسست بشيء لدن قد رزح فوقي. جسسته بقوائمي الأربع ودفعته عنّي بصعوبة المنهك، وإذ بي أراني في غرفتي، وفراشي الأسفنجيّ المهترئ يغطّيني كاملاً وأنا ممدّد تحته كالميت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زحفت بصعوبة طالباً بعض الهواء للتنفُّس.

كان الليل والسكون يعمّان المكان.

جفلت عندما أحسست بحركة بطيئة من وراء النافذة ذات الزجاج المكسور، فرأيت مَن كان دوماً يراقبني يبتسم بشماتة وحقد. حدَّقته من دون أن يرفَّ لي جفن، كمن يتحدّى موجة زيت مغليّ قاتلة، إلى أن بدأ هذا الوجه الكريه في الاختفاء والتلاشي، شيئاً فشيئاً، لكأنَّه قد تحوَّل إلى ذرّات صغيرة تتطاير في الهواء.

وأنا أزداد إصراراً على أن يتبخَّر ويختفي من روحي.

جلست على الكرسيّ وراء الطاولة وكلّي إصرار على أن أكتبَ وأكتب... وأكتب.

تناولت قلماً. وضعت رأسه على الورقة، وضغطت بقوَّة.

Telegram:@mbooks90

كتبت على رأس الصفحة (مئة عزلة في العام وأكثر... أكثر بكثير).

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

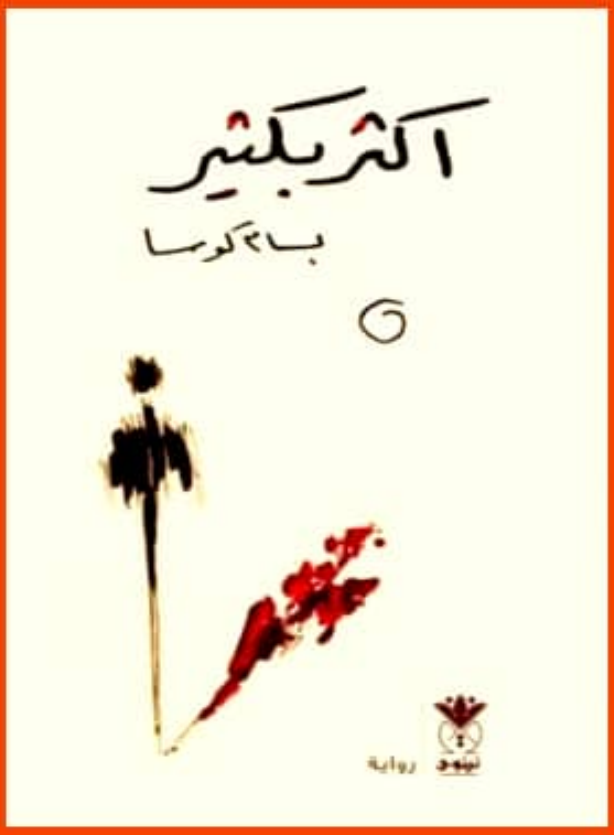

تم الرفع بواسطة: Akko :)
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner